

كراسات عقائدية

ميشيل عفلق

جمال الأتاسي



موقفنا السياسي من الشيوعية

نشرة داخلية خاصة بالأعضاء كانون الثاني 1956



منشورات الطليعة

تونس 1985

موقفنا من النظرية الشيوعية

ان قوة النظرية الشيوعية في البلاد العربية ناتجة عن ضعف الفكر بصورة عامة، وعن ضعف الفكرة القومية بصورة خاصة.

وسنتناول فيما يلي بعض النقاط التي تتعارض فيها الشيوعية مع الفكرة العربية. ونحن نعتقد ان تأثيرات النظرية الشيوعية ستبقى سلبية على القومية العربية، ما لم تعبر هذه القومية عن نفسها بنظرية علمية متماسكة شاملة، قابلة لان تتحقق في العمل المنظم.

١ ـ الشيوعية غربية

الشيوعية هي وليدة الفكر الاوروبي والاوضاع الاوروبية الحديثة. وكل الذين تناولوا الماركسية بالشرح والتصحيح ارجعوها الى اصولها الاوروبية الصرفة، فهي في نظرهم تمثل النزعة «الانسانية» التي ظهرت في اوروبا في القرن السادس عشر كبعث وتجديد لروح الحضارة الاغريقية اللاتينية. وهي وليدة القرن الثامن عشر وفلسفته العقلانية المجردة التي تلخصت في مبادىء الثورة الافرنسية. وهي اخيرا نتيجة لتقدم الصناعة العجيب في القرن الماضي ولما رافقه من نظريات اقتصادية ومذاهب اجتماعية.

فالشيوعية تتصل بألمانيا بواسطة فلسفة «هيجل» وبفرنسا بواسطة مبادىء الثورة والمذاهب الاشتراكية التي تفرعت عنها، وبانكلترا بواسطة الثورة الصناعية وما انتجته من نظريات في الاقتصاد. اما في روسيا فللشيوعية صلة بروحها القومية الخالصة، يعرف ذلك من اطلع على كتابات تولستوي ودوستويفسكي. والحق ان الشيوعية في روسيا هي مزيج من التصوف الروسي والعلم الاوروبي.

٢ ـ الشيوعية رسالة تنفي الرسالة العربية الخالدة.

ان الشيوعيين اذ يدعون العرب الى نظريتهم، يتجاهلون حقيقيتين:

١ ـ ان للامة العربية تاريخا مستقلا عن التاريخ الغربي الاوروبي وان النظريات والانظمة المنبعثة من حضارة الغرب واوضاعه لا تلبي حاجات البيئة العربية ولا تلقى

فيها تقبلا .

٢ ـ ان الامة العربية ليست كأية امة صغيرة ثانوية ، يمكنها ان تتبنى رسالة غير رسالتها الخاصة، وان تسير في ركاب امة أخرى وتعيش من فضلاتها .

الشيوعية ليست مجرد نظام اقتصادي بل هي رسالة، رسالة مادية اممية تنفي حقيقة القوميات في العالم وتنكر الاسس الروحية والوشائج التاريخية التي تقوم عليها الامة، فالعرب اذن مخيرون بين الامميه المصطنعة وبين انسانيتهم الحية المتحققة ضمن قوميتهم كنتيجة لنضج هذه القومية وتكاملها . وان حرص العرب على رسالتهم الخاصة بهم وعلى استقلال شخصيتهم لايعني منهم تعصبا ورغبة في الانعزال والجمود، ففي حاضرهم وماضيهم ما يكذب هذه التهمة . ولكنهم مقتنعون بأن كل اصلاح او تقدم لحياتهم لايستمد دوافعه وغايته من عقيدتهم القومية ، ومن الايمان بوجود رسالة عربية خالدة سيكون تقدما سطحيا يعجز عن توحيدهم ورفعهم الى مستوى الابداع والبطولة، ويتركهم افرادا متنافرين، تستعبدهم الانانية وشهوة المادة .

٣ ـ الشيوعية تربط العرب بالعالم ربطاً متحزباً خطراً .

يقرر الشيوعيون ان العرب عاجزون عن تحقيق استقلالهم ونهضتهم القومية اذا لم يربطوا مصيرهم بمصير العالم، ولم يأخذوا بأسباب الحضارة الحديثة، ثم يستنتجون من ذلك نتيجة خاطئة مغرضة : وهي انهم وحدهم يستطيعون ايجاد هذا الارتباط المزدوج، بأن يلحقوا العرب فكريا بالنظرية الشيوعية وان يلحقوهم سياسيا بمنظمات الاممية الثالثة اي بسياسة الاتحاد السوفييتي . ولكن العرب لاينكرون ضرورة اتصالهم بالعالم الحديث، الا انهم لا يرون امكان الافادة من الاتصال الثقافي الا اذا تكونت شخصيتهم القومية وبلغت حدا كافيا من النمو والوضوح والوعي لخصائصها يسمح لها بتمثل الافكار الاجنبية وتحويلها الى ما يزيد في نموها وتوضيح اتجاهها . لذلك هم يشعرون بخطر الارتباط الفكري المتحزب عليهم، لانه من جهة يهدد بطمس شخصيتهم القومية او على الأقل يعوق تفتحها، ومن جهة اخرى يفرض على الفكر العربي الحديث، وهو بعد في اول يقظته، نظرة متحزبة

تقضي على حريته ونزاهته، وتدفعه في طريق التعسف والتعصب والخطأ. اما من جهة الاتصال السياسي فالعرب لايطلبون اكثر من ان يكون تحالفهم مع الدول حرا، وان يستلهموا فيه مصلحتهم القومية قبل كل شيء.

٤ ـ الشيوعية لاتفهم امراض المجتمع العربي.

النظرية الشيوعية وليدة الغرب وقومياته المتعصبة المتناحرة، وصناعته المتضخمة. لذلك فهي في البلاد العربية تحارب امراضا غير موجودة، اي انها تلهي العرب عن محاربة امراضهم الحقيقية. فالشيوعية تريد ان تهدم العصبية القومية في امة لم تتكون قوميتها بعد، وتخشى من هذه العصبية على الامم الاخرى وعلى السلام العالمي في وقت لايزال العرب فيه محكومين من قبل غيرهم.

واخيرا فالشيوعية تمنع العرب من التفكير في اشتراكيتهم والاهتداء اليها، لأنها بادعائها ان الاشتراكية هي الماركسية، وان لا اشتراكية الا فيها وبها، قد شوهت الاشتراكية الصحيحة التي يحتاجها العرب. والماركسية، كما رأينا، نظام كلي اممي يتجاوز السياسة والاقتصاد الى الاخلاق والدين وكل ناحية من نواحي الحياة، في حين ان الاشتراكية ليست اكثر من نظام اقتصادي مرن متكيف مع حاجات كل امة. وليس بعسير على العرب ان يهتدوا الى اشتراكية عربية مستمدة من روحهم وحاجات مجتمعهم ونهضتهم الحديثة، تقتصر على ايجاد تنظيم اقتصادي عقلاني عادل يحول دون الاحقاد والنزاعات الداخلية ودون استغلال طبقة لأخرى وما ينتج عن هذا الاستغلال من فقر وجهل وشلل لنشاط أكثرية افراد الشعب العربي، وهكذا تكون هذه الاشتراكية خادمة للقومية العربية، وعنصرا هاما في بعثها وتحقيقها.

ميشيل عفلق

عام ١٩٤٤

موقفنا السياسي من الشيوعية

موقفنا من الشيوعية[1]

ان فكرة البعث فكرة ايجابية لم يكن الدافع الى ظهورها مكافحة افكار او حركات اخرى بل الاعلان عن حقيقة والنضال في سبيل نشرها وظفرها. اما اصطدامها الدائم او العارض بأفكار وحركات وقوى تعترض سبيل انتشارها وتحققها فقد كان وسيلة لتوضيح ذاتها وشق طريقها لا غاية في حد ذاته. ومع هذا فقد كان لابد لحركتنا منذ التعبير الاول عن فكرتها ان تتخذ موقفا اساسيا محددا من الشيوعية كنظرية معدة للتطبيق وكنظرة الى الانسان وذلك لأن الشيوعية اظهرت نفسها كخلاصة للفلسفات التي عرفها البشر وكدين جديد لمستقبل الانسانية. فتحديد موقفنا منها كان مفروضاً علينا من هذه الاعتبارات ومن الاهمية الفكرية والعملية التي احتلتها الشيوعية في العالم الاوربي لا من تماسها المباشر مع واقعنا العربي اذ ان هذا التماس كان سطحيا واضعف من ان يشكل مشكلة جدية وعميقة بالنسبة الى حياة العرب. اذن فتحديد موقفنا من الشيوعية منذ ذلك الحين كان يعني في الدرجة

---

(١) صدر هذا البحث في صورة (نشرة داخلية) خاصة بالاعضاء في أوائل كانون الثاني عام ١٩٥٦، بالتعاون مع الدكتور جمال أتاسي. أي قبيل انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي.. فهو يتصدى للعقلية وللممارسات التي كانت تطبع الظاهرة الستالينية والتي كانت تنعكس على مواقف الاحزاب الشيوعية تجاه قضايا الوطن والامة. وقد جاءت التطورات في المؤتمر المذكور، منسجمة مع التوقعات الايجابية الواردة في النشرة. والمقال الذي يحمل عنوان (العرب والاتحاد السوفييتي ـ حول زيارة شبيلوف) في الباب الثاني من الجزء الثاني من الكتابات السياسية الكاملة ـ معركة المصير الواحد، يؤكد هذا الاتجاه.

الاولى اعترافنا وحرصنا على اتصالنا بالعالم وبالعصر ووضع مصير الامة العربية كجزء لايتجزأ من هذا العالم ومن مصيره كما هو متجسد في مشاكل هذا العصر الفكرية والاجتماعية. ثم ان اتخاذ موقف من الشيوعية هو ضمناً اتخاذ موقف من القيم والاوضاع التي جاءت الشيوعية في اوربا كثورة عليها.

ان مجرد كون حركتنا حركة عربية انقلابية يعني اننا رفضنا نهائيا الاخذ بالنظرية الشيوعية وبحركتها وان خلافنا مع الشيوعية خلاف مبدئي واساسي وهذا ما سنوضحه في بحث مقبل نفرده لتحديد موقفنا الفكري من الشيوعية ـ ونكتفي هنا بعرض موقفنا السياسي. . وهووان كان مستمدا ككل مواقف حزبنا السياسية ـ من فكرتنا وعقيدتنا ـ الا أنه يتطلب كثيرا من الواقعية والمرونة ومراعاة الظروف. . لسببين الاول: هو ان الموقف السياسي يجب ان يعبر عن العقيدة من خلال ظرف واقعي معين وان يتكيف على الشكل الذي يضمن لهذه العقيدة أن تتابع انتشارها وتحققها ضد أهم الأخطار التي تعترض سبيلها مهادنة أو مرجئة الأخطار الأقل بروزا وضغطا. والثاني: ان الشيوعية كحركة وسياسة تطورت وابتعدت كثيرا عن التصميم النظري الذي وضعته الماركسية وذلك يفرض على موقفنا السياسي منها ان يأخذ هذا التطور والتبدل بعين الاعتبار وان يعبر عن مصلحتنا القومية تجاه الواقع الشيوعي في نفس الوقت الذي يعبر فيه موقفنا الفكري ـ وهو موقف ثابت في أساسه ـ عن مصلحتنا القومية تجاه النظرية الشيوعية الثابتة.

الاسس التي تحدد موقفنا من الشيوعية

١ ـ ان ظهور حركتنا العربية الانقلابية بأفكارها ومبادئها وسياستها وأسلوبها النضالي الشعبي قد جاء تعبيرا عميقا عن انعدام المبررات الجدية الايجابية لقيام شيوعية وحزب شيوعي في بلاد العرب. ولكن هذه الحقيقة يجب ان تفهم على وجهها الايجابي أي ان مدى تجاوب حركتنا مع حاجات الشعب العربي ومدى النشاط الذي نبذله في نضالنا الاشتراكي هو الذي يقرر، بمقدار ما يحققه من الامكانيات الانقلابية في وطننا العربي، الى أي حد يبقى المجال مفسوحاً أمام

الشيوعية لكي تفيد من النواحي السلبية في حياتنا القومية وتبقى لها مبررات النمو في بلادنا. وينتج عن ذلك اننا في أساس موقفنا السياسي لانقبل التحالف مع الشيوعية ولكننا نريد ان نصل الى ذلك في الظروف والمراحل التي تكون فيها بلادنا معرضة لخطر أشد وهو الاستعمار عن طريق التنافس الايجابي بيننا وبينها لا ان نسلك طريقا مصطنعا يؤدي في النتيجة الى تقوية مبررات انتشارها اذا نحن انشغلنا عن مقاومة الاستعمار بمقاومتها ورفضنا الالتقاء والتعايش المؤقت معها في الظروف التي تكون مصلحتها هي أيضا في دعم النضال العربي ضد الاستعمار.

٢ ـ ان موقف حزبنا هو موقف قومي مستقل يستلهم دوما مصلحة الأمة العربية في حاضرها ومستقبلها وهو يختلف كل الاختلاف عن موقف الأحزاب والفئات التي تعمل اما بوحي عقائد غير العقيدة القومية العربية ـ كالأحزاب الاقليمية والطائفية ـ واما بوحي المصالح الخاصة لأتباعها وطبقتها واحيانا بوحي الاستعمار نفسه اذ أن من هذه الأحزاب والفئات من يعادي الشيوعية دون أية مراعاة للظرف ولتفاوت الأخطار المهددة للوطن وهذا ما يشغل الشعب عن مقاومة الأخطار البالغة والمداهمة ويشتت تفكيره ونضاله ويسهل في بعض الأحيان مهمة الاستعمار في تثبيت أوضاعه وتنفيذ مآربه. أما موقفنا القومي المستقل فهو موقف مستقل عن الشيوعية مخالف لها ومختلف عنها أساسيا ولكنه ليس بالضرورة وفي كل حين معاديا لسياستها طالما ان هذه السياسة لاتشكل دوما أكبر خطر على مصلحتنا القومية وطالما انها هي أيضا ليست بالضرورة وفي كل حين مناقضة ومناوئة لمصلحتنا القومية وهذا ما يميز موقفنا عن الموقف السلبي الذي لايستمد مبررات وجوده الا من مكافحة الشيوعية وهو غالبا موقف الرجعيين والاستعماريين وأُجراء الاستعمار.

٣ ـ وهذا ما يقودنا الى تفريق أساسي آخر. فسياسة الحزب الشيوعي في بلادنا تنطلق من السياسة الخارجية المستوحاة من السياسة الشيوعية العالمية ومن ظروف الاتحاد السوفياتي وصراعه مع المعسكر الغربي. وما معالجتها بالتالي للسياسة العربية عامة وللسياسة الداخلية لكل قطر عربي الا نتيجة وانعكاسا لسياستها الخارجية، أما سياسة حزبنا فتنطلق من السياسة العربية الداخلية لنقرر على ضوئها

خطوط سياستها الخارجية وبالتالي موقفها من الشيوعية والاتحاد السوفياتي .

٤ ـ ان سياسة حزبنا مستمدة من فكرته الانقلابية العربية التي تقوم على أساس البعث العربي أي على تحقيق الانقلاب والانبعاث من الداخل وعلى تحرير البلاد العربية وتوحيدها وعلى تجديد المجتمع العربي والنهوض به أولا . بينما تهمل الشيوعية كل هذه الاشياء أو تتهاون فيها وقد تجيز لنفسها احياناً عرقلة هذه الأهداف لكي تلقي بصورة متعسفة مصطنعة بكل قضايانا القومية الى الصعيد الخارجي أو الدولي وعلى الشكل الملائم لمصلحة السياسة السوفياتية .

٥ ـ ومن أسس موقفنا السياسي ان نميز تمييزا واضحا بين موقفنا من الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية وبين موقفنا من الاتحاد السوفياتي . فبالرغم من ان الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية ـ كما هي في سائر بلدان العالم ـ تعمل لمصلحة السياسة السوفياتية وتطرح قضايانا القومية من هذه الزاوية فحسب الا أنها تمثل في نظر شعبنا وبالنسبة الى قضيته القومية شيئا آخر لا ينحصر في خدمة السياسة السوفياتية والترويج لها فهي مؤسسة قائمة في داخل بنياننا القومي وتأخذ عناصرها من أفراد شعبنا وتستقطع قسما من شبابنا المثقف وتتكلم لغتنا وتتداخل في شتى مناحي حياتنا عن طريق صحفها وكتاباتها وعن طريق الجمعيات والنقابات التي تتغلغل فيها . لذلك فهي تنافس الحركة القومية العربية من الداخل وفي صميم التكوين الفكري والتنظيمي للشعب أو لبعض فئاته على الأقل فصراعنا معها لا يقتصر على السياسة . ولذلك لا يمكن لهذا الصراع أن يتوقف حتى عندما تلتقي سياستنا بسياستها بل نكاد نقول ان خطر الأحزاب الشيوعية يزداد حين تقترب سياستها ـ وهي دوما خارجية ـ من المصلحة العربية . لأن هذا الاقتراب والالتقاء يخلقان التباسا خطرا في الأوساط السطحية الفهم والغير مزودة بتوجيه قومي متين اذ تتسرب الى هذه الأوساط ـ برفقة الشعارات السياسية الخارجية التي تلتقي مع شعاراتنا السياسية وبحجتها الأفكار والشعارات الشيوعية العقائدية التي هي أعمق وأبعد مدى من الالتقاء السياسي العارض وهذا ما يرتب على حركتنا واجب الحذر والحيطة والجهد المتواصل للتوضيح ولمنع أي التباس بين هويتنا وهوية الشيوعية .

في حين أن الاتحاد السوفياتي ، بالرغم من صفته كدولة شيوعية ومتزعمة وموجهة للأحزاب الشيوعية في العالم ومسيطرة عليها يبقى دولة تعمل بسياسة واقعية تراعى فيها مصلحتها وبقاءها والاحتفاظ بنفوذها وزيادته ضمن الظروف العالمية وتصارع القوى فيها، وان هذه المصلحة الواقعية للاتحاد السوفياتي لاتنصب في الدرجة الأولى ولاتقتصر على دعم الحزب الشيوعي في بلد ما بل هي أوسع وأكثر مرونة وتحرص قبل كل شيء على الافادة من وضع البلد بالنسبة الى القوى والظروف العالمية وقد يصل بها الأمر الى التضحية موقتا بالحزب الشيوعي ـ كما يجري الآن مع مصر مثلا ـ لتكسب صداقة هذا البلد وتتبادل المنفعة معه .

وفي ظروف هذه المرحلة التي يجتازها العرب في نضالهم للتحرر من الاستعمار الغربي يبدو من الطبيعي أن تلتقي مصلحتهم في أكبر من نقطة مع مصلحة السياسة السوفياتية. وما دامت هذه الظروف باقية فيبدو وعلى الأقل انه ليس من مصلحة العرب معاداة الاتحاد السوفياتي .

ومن أجل ذلك كله كان وجود الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية يحمل في طياته الى جانب الأضرار المعروفة ضررا آخر مباشرا هو تشويه نظرة الشعب العربي الى الروابط المصلحية التي يمكن ان تكون ويلتقي بها مع الاتحاد السوفياتي في سياسته الخارجية اذ لاشك أن النظرة الى هذه الروابط كان يمكن أن تكون أكثر تحررا وصفاء وجرأة لولا ما يلتبس به التقارب السياسي من الاتحاد السوفياتي من تهديد الكيان القومي بانتشار الشيوعية وهكذا نصل الى هذه النتيجة . . وهي أنه بمقدار ما ننشط ونحول بنشاطنا الايجابي دون انتشار الحزب الشيوعي وبمقدار ما تضيق وتتقلص رقعة هذا الحزب أمام توسع حركتنا بمقدار ما يسهل تكوين سياسة عربية مستقلة تستطيع الافادة من وجود الاتحاد السوفياتي في وجه الاستعمار الغربي والتفاهم معه على كل ما يخدم القضايا العربية .

٦ ـ ان النهج المبدئي لحزبنا يقوم على خلق وعي سياسي عند جماهير الشعب لتتلمس مباشرة قضاياها وهذا ما يتطلب الصدق والوضوح والتجاوب الدائم مع حاجاته ومطاليبه ويجعلنا نصرّ دائما على الابتعاد في سياستنا عن كل تهويش

أو موازبة وتغطية وعلى عدم اشغال الجمهور بقضايا بعيدة عنه وعدم صرفه عن النضال الداخلي في سبيل التحرر والتقدم لاشغاله بقضايا كاذبة أو قضايا لم يحن بعد وقت طرحها كما تفعل الشيوعية في طرحها لشعاراتها العامة في السلام والتعايش السلمي والانفراج الدولي ونزع السلاح، وفي سياسة البرقيات والعرائض لهذه الأغراض فماذا تعني هذه الشعارات وهذه القضايا بالنسبة لجمهور شعبنا وهو في كفاحه ضد الصهيونية وضد الاحتلال والتجزئة وضد نفوذ الاستعمار السياسي والاقتصادي في بلاد العرب وضد الرجعية والتأخر؟

ان هذا لايعني اننا ندعو لسياسة عزلة وانغلاق وان قضايا السياسة العالمية لاتعنينا فالوعي القومي العربي الحديث مطالب بأن ينفتح على المشاكل العالمية ويدخلها في حسابه ولكن بمقدار الضروري النافع وعلى أساس مصلحة الأمة العربية مع مراعاة ظروف مرحلتها الحاضرة التي تستوجب التركيز على خلق الشخصية العربية وتقويتها. وهذا مايدعونا الى مقاومة محاولة الشيوعيين لاغراق قضيتنا القومية في بحر من المشاكل العالمية الواسعة والحذر من منطقهم الخاص المتعسف الذي يعين أهمية الحوادث العالمية لابالنسبة الى مصلحة العرب ولاحتى بالنسبة الى الأهمية الموضوعية لهذه الحوادث بل بالنسبة الى مصلحة الحركة الشيوعية.

ومن هذه الفوارق المبدئية بيننا وبين الشيوعية ينتج أيضا اختلاف أساسي في الأسلوب السياسي الذي نتبعه في تنظيم نضال الشعب وفي طرح شعارات هذا النضال. واختلاف عن الشيوعية في المنطق والأسلوب الذي نعالج به قضايانا في السياسة الداخلية والعربية والدولية.

بين منطق حركتنا وسياسات الحزب الشيوعي

ان الفرق بين حركتنا وبين الشيوعية هو الفرق بين ما هو وطني وما هو غريب، بين ما هو طبيعي وما هو مصطنع، خاصة اذا عرفنا ان ظروف البلاد العربية واوضاعها ونفسيتها في هذه المرحلة التاريخية هي جد مختلفة وبعيدة عن ظروف البلدان

الاوروبية المهيأة اقتصاديا وسياسيا وحضاريا لان تكون الشيوعية فيها اكثر من حركة غريبة توجهها سياسة دولة اجنبية. وهذا يعني ان الشيوعية في كثير من بلدان اوروبا استطاعت الى حد كبير ان تستوطن وتكسب حق المواطنة. وما ذلك الا لأن البلاد الاوروبية قد بلغت في هذا العصر، ولو بنسب متفاوتة حداً استوت فيه المشاكل الداخلية والمشاكل الخارجية حتى اننا نستطيع دون كبير تعسف في الاحكام ان نعتبر الشيوعية مظهرا ونتيجة لتطور اوروبا اكثر منها سببا ودافعا لهذا التطور وهذا مالا ينطبق على حالتنا نحن العرب، فبينما تتجاوب الشعارات الشيوعية رغم اصطناعها الظاهري وتعصبية نظرتها مع حاجات واقعية عند شعوب الغرب ـ كقضايا السلم العالمي مثلا والتعايش السلمي وتحريم السلاح الذري ـ تظهر هذه الشعارات في الحياة العربية الحاضرة كأنها هابطة من عالم آخر ومفروضة من خارج واقعنا وحاجاتنا لا لأنها عديمة الصلة اصلا بهذا الواقع بل لانها لاتعبر عن اهم شيء فيه وعن اشد حاجاته ضغطا والحاحا.

فحركتنا رغم انها وعت منذ بدئها ظروف العصر وخاصة ظروف اوروبا ـ البلاد الراقية المسيطرة ـ ظلت حركة عربية منبعثة من صميم الواقع العربي ومتصلة بأعمق الروابط مع شعبنا وماضيه ومشاكله الحاضرة واستعداداته لخلق مستقبل له. فنحن عندما قلنا ان حركتنا وطنية لم نقل ان الحركة الشيوعية لا وطنية ولكننا قلنا انها غريبة اي غير متجاوبة مع صميم حاجاتنا فقد تقف الشيوعية من قضايانا في بعض الاحيان مواقف وطنية ولكن هذا لاينفي عنها غربتها ولا يكون اكثر من التقاء عارض في المصلحة لا في النظرة والشعور، لذلك فهي في احيان اخرى تتراجع عن هذه المواقف او تناقضها بسهولة لايقدر عليها ولا يعقل ان يقدم عليها من ربط مصيره بمصير شعبه واستوحى افكاره وخططه من حاجات الشعب ومصلحته التي لايمكن ان تتبدل او تتناقض بين حين وآخر.

وتبعا لهذا الفارق المميز نفسه نستطيع ان نفهم كيف ان حركتنا المعتمدة على جذورها القومية و الواثقة من تجاوبها مع حاجات الشعب العميقة تظهر من الجرأة في طرح المشاكل ومعالجتها ـ ولو انها في بعض الاحيان غير متكافئة مع صعوبات هذه

المشاكل - وكيف ان الشيوعية الجريئة في تقلباتها السياسية تتردد كثيرا في اقتحام ميادين نضاليه لا تعطي مردودا سياسيا عاجلا ويتطلب اقتحامها ثقة في الشعب واعتمادا على قواه الكامنة وتضحية بالحاضر في سبيل خلق وعي عميق اوتبديل شيء اساسي في مستقبل هذا الشعب.

في السياسة الداخلية :

منذ خمسة عشر عاما، ومنذ تأسس حزبنا بفكرته العربية الانقلابية الاشتراكية، ركز نضاله الاساسي في سوريا على مقاومة الاستعمار الفرنسي دون ان ينسى ضعف القيادة الوطنية المتزعمة للنضال الشعبي والمستغلة له. فكان في نفس الوقت الذي يدعو الشعب فيه الى مقاومة المستعمر بكل قواه وبكل الوسائل، يحذره من الزعماء المستغلين ومن مساوماتهم وتراجعهم ويربط بين سياستهم الانتهازية الرخوة المترددة وبين عقليتهم كطبقة لا تحيا حياة الشعب ولا تشعر شعوره ولا تثق به ولا تستطيع ادراك المدى الذي يمكن ان تبلغه قدرته النضالية الهائلة كما يربط بين التناقض القائم بين ادعائهم مقاومة الاستعمار من اجل اجلائه التام وبين حرصهم على تلك المصالح الخاصة وما يقود اليه من لين وتراجع كلما هددهم الاستعمار في صميم مصالحهم علاوة على ان تشبثهم بهذه المصالح كان بصورة غير مباشرة يضعف الوسائل النضالية عند الشعب نتيجة افقارهم واستعبادهم له، وما ان خطت القضية الوطنية خطوة الى الامام سنة ١٩٤٣ عندما سلم الاستعمار الفرنسي لسوريا بنوع من الاستقلال مشوب بالنقص والاخطار وقام في البلاد من جديد حكم وطني دستوري حتى وجد حزبنا من واجبه ان يزداد جرأة في فضح مساوىء الفئة المتزعمة التي وصلت الى الحكم واستمرت في عقليتها واساليبها القديمة المعروفة باحتقارها للشعب وخوفها منه وترتيب سياستها ومساوماتها مع الأجنبي في معزل عنه وبالتالي باضطرارها لخرق الدستور وتزييف النظام البرلماني وقمع الحريات وافقاد البلاد القوة الوحيده التي تستطيع ان تقف في وجه الاعيب المستعمر وغدره وبطشه الا وهي قوة الشعب وهكذا اخذ تركيز الحزب ومقاومته يتوجهان الى هذه الفئة الحاكمة بنفس الدرجة التي كانا يتوجهان فيها الى الاستعمار دون خشية من تصديع لتلك الوحدة

الكاذبة المزعومة للصف الوطني . ودون خوف من ان يستغل الاستعمار نضالنا ضد الفئة الحاكمة طالما ان هذا النضال اقتصر اذ ذاك على التحذير والضغط في سبيل التشدد في مطالبنا وحقوقنا القومية وعدم التساهل والتفريط بشيء منها خاصة وان الحزب كان يقف من الفئات والاشخاص المتعاونين مع الاستعمار موقفا اشد واصلب من موقفه من الفئة الحاكمة . وكان يرفض اي التقاء اوتعاون مع هذه الفئات ومع المعارضين المدفوعين بالاغراض والمصالح الخاصة . وبهذا الاسلوب المستمد من روح الشعب وحاجاته والواثق بقدرة الشعب على الاستمرار في النضال وعلى خلق قيادة جديدة لهذا النضال تخرج من صميمه وتكون خالصة من شوائب القيادة القديمة . . استطاع الحزب ان يفتح امام الشعب ابواب المستقبل بارتفاعه بمستوى النضال الى الصعيد الشعبي الانقلابي . . اذ طرح قضية سوريا كجزء لايتجزأ من تحرر الشعب السياسي والاقتصادي . ومن توحيد نضاله في جميع اقطاره ومن العمل على توحيد هذه الاقطار المجزأة . وبعد جلاء الفرنسيين عن سوريا ولبنان ازداد نضال الحزب شدة واتساعا في سبيل اشراك جماهير الشعب في الحياة السياسية والقومية . . وضد كل محاولة من الفئة الحاكمة لعرقلة استلام الشعب لقضيته فكانت مقاومتنا المعروفة للمراسيم الاشتراعية الخانقة للحريات حتى تراجعت الفئة الحاكمة عنها . . وكان نضالنا المشهود في سبيل جعل الانتخابات على درجة واحدة ودفاعنا المتواصل عن حرمة الدستور وسلامة الحياة البرلمانية والديمقراطية . . . كل ذلك لايماننا العميق بأهمية هذه الخطوات في طريق تكامل وعي الشعب وشعوره بشخصيته القومية ومسؤوليته التاريخية . ومن اعداده للانطلاق نحو مهمات ابعد واصعب تتناول تبديل اسس النظام الاجتماعي الفاسد وما يرافق ذلك او يليه من تبديل عميق لأسس حياة الفرد والمجتمع في نواحيها الفكرية والاقتصادية . . . وعلى هذا المنوال يمكن فهم المراحل التالية لنضال الحزب وكيف انه بعد ان سجل نصرا للحريات العامة اخذ يركز على الناحية الاشتراكية دون تناس او اهمال لمقاومة الاستعمار وللعمل في سبيل الوحدة العربية . وكيف ان الحزب قاوم بمفرده تقريبا الدكتاتورية العسكرية . . لا لأنها دكتاتورية فحسب بل لانتحالها الكثير

من شعاراته القومية التقدمية . ولانها بهذا التضليل كانت تبدد اصالة الانقلابية العربية التي يشترط في تحقيقها ان يحملها الشعب ويحميها بنضاله الحر الواعي وبمشاركته العميقة لا ان تفرض عليه من فوق وبقوة السلاح مع العلم بأن زيف تقدمية الانقلابات العسكرية كان مفضوحا اذ قامت كلها بقصد طرد حركتنا من الساحة وتطمين المصالح الرجعية والاستعمارية .

اما الحزب الشيوعي فكانت مواقفه تبعا لمنطقه الذي ينطلق من السياسة الخارجية مواقف معرضة لتقلبات كثيرة ناتجة عن تقلبات السياسة السوفيتية الخارجية . . فبعد ان بدأ بداية عقائدية واضحة ادخل تعديلا كبيرا على سياسته منذ سنة ١٩٣٦ اي السنة التي تحولت فيها سياسة الكومنترن في العالم واتجهت نحو الاعتدال والتعاون مع الحركات الوطنية والاحزاب التقدمية . واوحت لتلك الاحزاب باقامة الجبهات الوطنية والدعوة لها . ومذ اصبح الحزب الشيوعي السوري اللبناني مرتبطاً بالكومنترن عن طريق الحزب الشيوعي الفرنسي . . كانت سياسة الشيوعيين في بلادنا سياسة تعاون ايجابي مع الفئات الحاكمة الرجعية . وانصرفت عن النضال ضد العدو المباشر وسكتت عن مقاومة الاجنبي المحتل لاشغال الشعب بقضايا بعيدة عنه ، كقضية فرانكو مثلا والحرب الاهلية في اسبانيا . وعلى اثر اعلان الحرب العالمية الثانية وكنتيجة لتفاهم روسيا مع المانيا النازية عاد الحزب الشيوعي في سوريا الى عدائه الصريح للاستعمار الفرنسي والمعسكر الغربي عامة وظل على هذه الحال حتى اضطرت روسيا الى تبديل موقفها بعد ان هاجمتها الجيوش الالمانية فالتقت مع الحلفاء في حربهم ضد النازية وبالتالي عاد الحزب الشيوعي الى مسايرة الاستعمار الفرنسي وحلفائه . . وأخذ يشكل الجمعيات لمكافحة الفاشية ويجمع فيها الاسماء البارزة من السياسيين المأجورين للاستعمار والاقطاعيين وكبار موظفي الدولة الى جانب الكتاب والصحفيين وذابت قضية البلاد الأساسية في الاستقلال والحرية كما تضاءلت قضية الشعب بعماله وفلاحيه وظل هذا شأن الشيوعيين بعد قيام العهد الوطني للمرة الثانية سنة (١٩٤٣) فكانوا على صلات حسنة مع حكومات ذلك العهد ولم يرفعوا صوتهم لاضد الضغط على حريات

الشعب وخرق الدستور ولا ضد سياسة المساومة والتخاذل أمام الفرنسيين ولا ضد تصريحات الحكومة الامريكية المؤيدة للصهيونية في فلسطين. وعند نهاية الحرب وانتصارات الحلفاء كان الشيوعيون يحشدون أتباعهم في مظاهرات يحملون فيها صورة الجنرال ديغول الى جانب صورة ستالين. ولم يحركوا ساكنا أو يساهموا في مجهود البلاد للتخلص من الاحتلال الفرنسي لأن سياستهم كانت متأثرة بالخوف من امتداد النفوذ البريطاني الى سوريا في حالة جلاء الفرنسيين عنها. وكل هذا ينم عن ضعف ارتباطهم وضعف ثقتهم بالشعب. وبعد الجلاء واستفحال مفاسد الحكم الوطني وتزايد نقمة الشعب على الاستغلال والطغيان لم يكن الشيوعيون أقوى المعبرين عن مشاعر الشعب ومصلحته بل كانوا أحيانا ينقذون المظاهر برفع صوتهم في آخر المعركة وبعد ان يكون حزبنا وجماهير الشعب قد أدوا ضريبة النضال سواء بدفع خطر القوانين الجائرة أو بتحقيق قوانين تقدمية.

ولا حاجة لتكرار القول بأن تأييدهم الضمني لهذه الحكومات الاقطاعية أو سكوتهم عنها وتراخيهم في مقاومتها لم يكن معبرا عن موافقتهم على سياستها الداخلية الرجعية وانما كان نتيجة رضائهم عن سياستها الخارجية التي كان الشيوعيون يرون فيها حدا أدنى من الحرص على الاستقلال بمعناه الاقليمي والابتعاد النسبي عن النفوذ البريطاني والامريكي.

وفي عهود الدكتاتورية العسكرية لم تكن تعنيهم حرية الشعب المخنوقة وما كان يصيبه من ظلم بقدر ما كانوا يتخوفون ان تؤدي سياسة العسكريين الى تحالف مع دول المعسكر الغربي في أحلاف عسكرية يقصد منها اكمال تطويق الاتحاد السوفييتي لذلك خفت مقاومتهم عندما اطمأنوا الى عدم انجرار الدكتاتورية العسكرية زمن الشيشكلي وراء سياسة الأحلاف. مع العلم ان وعي الشعب ونضاله هما اللذان جعلا من المستحيل على الشيشكلي ان يسير في سياسة الأحلاف.

في السياسة العربية:

لقد سبق وذكرنا في معرض التمييز بين سياستنا والسياسة الشيوعية اننا ننطلق من

السياسة الداخلية القومية بينما ينطلق الشيوعيون على العكس من السياسة الخارجية. . ولكن هذا يحتاج الى توضيح ما نعنيه بالسياسة الداخلية في هذا المعرض. . فهي ليست الشؤون الخاصة بكل قطر عربي على حدة، بل الشؤون المتصلة اتصالا وثيقا بحياة الشعب العربي كشعب واحد في مختلف أقطاره. يجتاز مرحلة انبعاث قومي، وبتعبير آخر فان نقطة انطلاقنا هي النقطة المشتركة (القومية) بين جميع العرب التي ننظر على ضوئها الى تفصيلات الحوادث والمشاكل الداخلية بالنسبة الى كل قطر لتنتظم هذه الحوادث والمشاكل في منطق معين له اتجاه واحد وأهداف أساسية واحدة. وفي هذا نختلف كل الاختلاف لا عن الشيوعيين فحسب بل عن جميع الأحزاب العربية والفئات الحاكمة التي تعتبر المصلحة العربية المشتركة مقتصرة على عدد من القضايا العليا التي تلتقي عليها جميع الأقطار العربية أو أكثرها والتي هي من نوع القضايا التي تجمع بين بلدان عدد من الشعوب المختلفة والعائشة في منطقة واحدة من العالم أو المهددة بخطر واحد والمشتركة رغم اختلافها في روابط حضارية واقتصادية ودفاعية وغير ذلك دون ان يكون ثمة أية علاقة بين الأوضاع والمشاكل الداخلية لكل شعب منها وبين هذه الروابط المشتركة مما يؤدي عمليا الى تضارب واصطدام بين النهج المشترك والنهج الخاص بكل قطر. . وبالتالي الى تعذر أي توحيد فعلي مهما يكن بسيطا والى تخبط لا نهاية له في التناقض بين الوسائل والأهداف والأعمال والادعاءات. ذلك لأن قيام هذا الاشتراك في المصلحة بين شعوب تعرف وتعترف صراحة انها متمايزة مختلفة وتريد ان تجد نقاط التقاء فوق هذا التمايز والاختلاف هو أمر طبيعي وايجابي وممكن لايشوشه تناقض ولا يعترضه تضارب لأن هذا الاشتراك أريد له منذ البدء وصراحة ان يكون محدودا وسطحيا وان لايمس تكوين هذه الشعوب في الاعماق. في حين ان اتباع نفس المنطق مع أجزاء شعب واحد يعيش مشاكل واحدة وينزع الى أهداف واحدة ومصير واحد يؤدي الى عكس النتيجة لأن محاولة التقريب والتوحيد بينه على أساس المنطق السائد لدى الأحزاب والفئات الحاكمة العربية انما هي في الواقع محاولة لخلق التباعد وتقوية عناصر الاختلاف والتباين واعطاء مشروعية وقدسية لما هو

طارىء دخيل على حياة الأمة وجعله هو الأصل بينما تصبح الوحدة الأصيلة للأمة أمرا سطحيا يدخل في نطاق خطط السياسيين ومفاوضاتهم ومساوماتهم.

اذن فقصدنا من السياسة الداخلية هو المعالجة الحية لمشاكل الشعب العربي على أساس وحدة قوميته ومصيره. فقضية تحرر سوريا من الاستعمار الفرنسي وتحرر الشعب السياسي في صراعه من أجل الدستور والحريات العامة وقضية تحرر الفلاحين فيها من سيطرة الاقطاعيين وتجربة الحكم العسكري وفضح ما فيها من تزييف للحركة الانقلابية الشعبية.. كل هذه القضايا لم يثرها حزبنا بهذا التسلسل وهذا العمق لأنها قضايا خاصة بسوريا بل لاعتبارها جزأ ونموذجا من قضايا الشعب العربي كله ولاعتبار تأثيرها وتفاعلها في القضية القومية الكبرى.

وبالاستناد الى كل ما تقدم يسهل توضيح موقفنا من السياسة العربية وفهمنا لهذه السياسة بعد أن رفضنا المفهوم السطحي الزائف للأحزاب والفئات الحاكمة العربية نستطيع القول.. ان السياسة العربية هي التقاء وتضافر وتفاعل مستويين من النضال، مستوى النضال المنصب على المشاكل الشعبية التي تمس حياة الشعب العربي في كل قطر حسب أوضاع هذا القطر من حيث علاقته بالاستعمار والفئات الحاكمة والطبقة المستغلة والمشاكل الاجتماعية والفكرية الراهنة.. كل هذا مطروحا منذ البدء على أساس النظرة العربية، ومستوى النضال المنصب على الوحدة القومية كارادة وخلق وخطة. وبتعبير آخر ان ايقاظ القوى النضالية في الشعب العربي في كل قطر بمفرده وحسب ظروفه وتربية هذه القوى وتنميتها يجب ان يستغل ويحول باستمرار الى قوة شعبية نضالية تضغط من أجل توحيد أجزاء الوطن العربي مراعية ملاءمة الظروف السياسية العربية والدولية لتجسيد هدف الوحدة في خطوات انشائية حيث يكون ذلك ممكنا وفي تضامن قومي وسياسي ونضالي بالنسبة الى الأجزاء التي لم تتهيأ لها بعد ظروف التوحيد الانشائي. ولقد لحق بالقضية العربية أضرار جسيمة من جراء الفصل بين هذين المستويين من النضال اللذين يجب ان يظلا مترافقين متفاعلين متحدين. فثمة الذين يأخذون الوحدة العربية مجردة من لحمها ودمها كقشرة بلا لب وعنوان بلا محتوى عندما يفصلون جهلا وتجاهلا بين

وحدة العرب القومية وبين حاجات الشعب العربي الحياتية ثم يظهرون دهشتهم بعد ذلك لتعثر سير الوحدة وعقم محاولاتها متناسين ان هدفا ضخما وصعب المنال كهدف الوحدة لابد له لكي يتحقق من قوة ثورية نضالية لا تتوافر الا في جماهير الشعب الثورية المناضلة، والا اذا اندمج هذا الهدف بمطالب الشعب الاقتصادية والتحررية وارتكز على دعامتي الاشتراكية والحرية. وثمة أيضا الذين يناضلون ضمن القطر الواحد على أساس تجسيد حاجات الشعب في هذا القطر الاقتصادية والتحررية ويقفون عند هذا الحد، متوهمين ان ترابط أجزاء هذا النضال وتجمعها خلال الاقطار العربية المختلفة يتمان بصورة آلية ودون خطة منسقة لاجزاء هذا النضال ودون دمج هذا النضال في جميع خطواته وتفصيلاته دمجا عميقا بنضال الوحدة.

ان نظرتنا العربية لاتقتصر على وجوب طرح المشاكل القطرية الداخلية بمنطق معين هو منطق وحدة الأمة العربية ووحدة مصيرها، بل تؤدي أيضا الى اغفال أو تأجيل أو تضحية لبعض هذه المشاكل القطرية لكي نقدم عليها ماهو أهم وأوثق صلة بمصلحة العرب وما يمكن ان يحقق نفعا أساسيا للعرب كأمة واحدة.

وتتوضح نظرتنا هذه باستعراض سريع لبعض مواقف حزبنا... ففي بداية تاريخ حزبنا في مرحلته السرية، لم نكد نخرج من أوائل عام ١٩٤١ من معركة عنيفة ضد الاستعمار الفرنسي وحكومة المديرين في سوريا حتى حدثت ثورة العراق على الاستعمار البريطاني فتجند الحزب لدعم هذه الثورة. وكان توجيهه مركزا على موضوع الوحدة العربية واثر العراق فيها اذا تمكن بمناصرة الشعب العربي في الأقطار الأخرى من ان يحقق استقلاله التام ليعمل بدوره على تحرير الأقطار الأخرى ومنذ قيام الحكم الوطني بسوريا سنة ١٩٤٣ كان نضال الحزب يطرح دوما قضايا العرب القومية ويطرح قضايا سوريا على الصعيد العربي ويضغط على الحكومات فيها لتحريرها من النظرة الاقليمية. وهكذا أعلن الحزب مخاوفه وارتيابه من الجامعة العربية منذ اليوم الأول لتأسيسها وفضح الانحراف الأساسي الذي تضمنه ميثاقها ونقطة انطلاقه. وطالب الحزب بجامعة شعبية تضم الأحزاب العربية الأكثر اتصالا

بجماهير الشعب كخطوة نحو توحيد النضال العربي الشعبي. وفي سنة ١٩٤٥ عندما أثارت بعض الحكومات العربية فكرة مشروعات توحيدية أو اتحادية، كمشروع سوريا الكبرى ومشروع اتحاد سوريا والعراق.. قام الحزب بفضح المصالح الاقليمية والشخصية التي انطوت عليها مقاومة الفئة الحاكمة في سوريا لتلك المشروعات كما فضح الأغراض المبيتة للاستعمار من وراء طرح قضية الوحدة العربية على ذلك الشكل المنحرف لتشويه فكرة الوحدة من أساسها. ولكن الحزب لم يقف عند هذا الحد السلبي بل بين الشروط السليمة والواقعية التي يمكن أن تتوافر لتحقيق خطوات في طريق الوحدة.

أما قضية فلسطين فكانت معالجة الحزب لها واضحة جلية اذ بيّن عجز الحكومات العربية عن الصمود في وجه الصهيونية ما دامت هذه الحكومات كلها، ولو بنسب متفاوتة، مسلمة قيادها للدول الاستعمارية تسير بتوجيهها وتتحاشى مخالفتها واغضابها وطالما انها من جهة أخرى حكومات رجعية تمثل مصالح الطبقة المستغلة للشعب، فلا تستطيع الاطمئنان الى الشعب وفسح مجال النضال القومي أمامه.. وفضح حزبنا بصراحة تامة أسلوب الحكومات والزعماء التقليديين في تزييف قضية فلسطين وتغليفها بحجب كثيفة من الدعايات العاطفية والسطحية المضللة التي من شأنها ان تبلبل وعي الشعب وتشوش حماسته واندفاعه وتعطل بالتالي معظم امكانياته النضالية. وربط الحزب قضية فلسطين ربطا وثيقا بالقضية القومية الأساسيّة أي بتكوين المجتمع العربي وبوجود الاستعمار والتجزئة والاستغلال الطبقي وبيّن ان حلها لايكون الا بجزء من الحل القومي العام، ولكنه لم يستنكف عن دخول النضال العاجل والمسلح ودعا الشعب الى المساهمة فيه على أوسع نطاق رغم العراقيل التي كانت الحكومات تضعها في سبيله. وقصده من ذلك ان هذا النضال الشعبي علاوة على كونه تعبيرا عن حيوية الأمة وشعورها بوحدتها وتحسسها بحقوقها ومصلحتها فانه يساعد على فضح تآمر الفئات الحاكمة ويعجل في انهيارها واستلام الشعب لقضيته.

أما بالنسبة للمغرب العربي فقد حرص حزبنا منذ تأسيسه الى اليوم في جميع

مواقفه السياسية على تجسيد ايمانه بوحدة الأمة العربية وخاصة بكون المغرب العربي جزءا لايتجزأ من وطننا الواحد، ذلك لأن الحزب كان يعرف مدى الأثر السلبي الذي أحدثه الاستعمار والتجزئة والانشغال بالمصالح الاقليمية الضيقة والآلية حتى ضعفت الرابطة بين شطري الوطن الواحد فكان الحزب لايضيع مناسبة الا استخدمها للتذكير بقضية المغرب وادخالها في صميم النضال الشعبي. وكان الحزب في بياناته ومواقفه النضالية يحمل على الحكومات العربية والجامعة العربية لاهمالها قضية المغرب وتقاعسها في دعمها دوليا وامداد نضال الشعب العربي في المغرب بالمساعدات الجدية، وكان يحمل عليها بصورة خاصة لجعلها قضية المغرب في بعض الأحيان موضوع مساومة مع فرنسا وكان هذا الموقف جليا في عهد دكتاتورية الشيشكلي عندما كان هذا الأخير يساوم فرنسا لتزويد الجيش ببعض الأسلحة على حساب حرية شعبنا المكافح اذ ذاك كفاحا دمويا في تونس ومراكش. كما أن الحزب الى جانب محاولاته المستمرة لادخال قضية المغرب في صلب النضال العربي الشعبي في الشرق قد وقف دوما من نضال المغرب موقف الداعم للحركات الشعبية الثورية الصلبة ضد تخاذل السياسيين المعتدلين وضد الانتهازيين الذين يطعنون نضال الشعب بالمفاوضات والمساومات مع الاستعمار وبتجزئة نضال المغرب لنيل مكاسب سطحية لقطر على حساب الأقطار الأخرى.

وأخيرا لابد من كلمة موجزة عن موقف حزبنا من سياسة الحكومات العربية بعضها حيال بعض وحيال الغرب من بعد كارثة فلسطين... لقد أحدثت هذه الكارثة وقيام دولة اسرائيل أثرا مختلفا في كل من الشعب العربي ومن الطبقة الحاكمة المستغلة. فخطر اسرائيل قد نمّى روح الثورة التحررية والاجتماعية بشكل عام وشعور الشعب العفوي وحاجته الطبيعية الى الوحدة القومية بشكل خاص بينما دفع الطبقة الحاكمة (وهي انفصالية بحكم وجودها ومصالحها) الى استسلام متزايد للاستعمار الغربي تتقوى به ضد توسع اسرائيل المحتمل وضد الثورة الشعبية على السواء. وكان الاستعمار يدرك هذه النفسية الجديدة ويسعى لاستغلالها بتقديم مشروعاته الدفاعية للحكومات العربية ليطمئنها بهذه المشروعات على بقائها أمام

خطر التوسع الصهيوني والثورة الداخلية . ولكن وعي الشعب العربي قد فضح هذه الخطط اذ أن الشعب لم يكن يجهل أن الاستعمار الغربي هو المستفيد الأول من تشجيع الصهيونية وانشاء دولة اسرائيل، وبالتالي فلم يكن الشعب يرى سبيلا للتخلص من الصهيونية واسرائيل الا بالتخلص من الاستعمار أولا . وهكذا فقد عجلت كارثة فلسطين في فضح الطبقة الحاكمة المستغِلة وفضح تآمرها مع الاستعمار ونتج عن ذلك تطور نسبي للحكم في بعض الأقطار المعرضة بصورة مباشرة لخطر اسرائيل كمصر وسوريا حيث اتجه الحكم نحو التقدمية في الداخل والتحرر التدريجي من تبعية المعسكر الغربي . أما في العراق حيث خطر اسرائيل أقل تهديدا مباشرا . فقد حاولت الفئة الحاكمة المستسلمة للاستعمار ان تستر رجعيتها الداخلية وتبعيتها الخارجية لتوجيه أنظار الشعب الى مظهر فارغ للوحدة القومية مستغلة حاجة الشعب العربي التي تضاعفت مع ظروف الخطر الجديد الى تحقيق وحدته .

الا ان الخطوات التقدمية والاستقلالية لم تعط في مصر كل ثمارها الايجابية ولم ترتكز حتى الآن على أسس شعبية مضمونة البقاء بينما بقيت في سوريا شكلية في حدود الشعارات لأنها في كلا البلدين ما زالت تفتقر الى دعامة أساسية هي الوحدة التي تحميها وتغذيها. كما ان محاولات الفئة الحاكمة في العراق في السنوات الأخيرة لتحقيق خطوة اتحادية باءت بالفشل وانتقلت الى عكسها فعزلت العراق عن بقية الأقطار العربية لأن الخطوات التوحيدية تشترط الخطوات الاستقلالية والتقدمية ولا تتفق مع الأحلاف الاستعمارية والحكم الرجعي الاقطاعي .

وكان على حزبنا في وسط هذه الالتباسات المعقدة ان يقف الموقف القومي السليم فيشق للحركة الشعبية بشعاراتها وأهدافها التحررية التقدمية القومية طريقها، ويحارب محاولات الاستعمار والحكومات الرجعية المؤتمرة بأمره، ويقاوم انحراف المحاولات التحررية والتقدمية التي لاتقوم على النضال الشعبي ولا تعمل على أساس وحدة المصير العربي ، أي أنه كان على الحزب في نضاله ضد الاستعمار وأحلافه والحكم الرجعي واستغلاله ، وفي نضاله من أجل التحرر والتقدم ان ينقذ

مطلب الوحدة القومية التي كادت تضيع بين دعاتها المشبوهين وخصومها التقدميين والمتسترين بالحرية والاستقلال ليحافظوا على مصالح التجزئة ويعرقلوا كل توحيد. فالحزب يعرف ما تنطوي عليه مشروعات التوحيد المزيفة من أغراض رجعية ومقاصد استعمارية ولكنه يعرف أيضا ان مجالا كبيرا ينفسح لخطوات توحيدية جريئة وجزيلة النفع ليس بمقدور الاستعمار ان يمنعها أو يتدخل فيها وان الحائل الوحيد دون تحقيقها هو عرقلة الحكام والمصالح الشخصية والاقليمية. ويحرص الحزب أخيرا بالنسبة الى الأقطار التي لم تستطع بعد ان تتحرر من الاستعمار والرجعية ان يبقيها وثيقة الاتصال مع غيرها من الأقطار الأكثر تحررا سواء اكان اتصالا شعبيا نضاليا أم تعاونا رسميا في مجالات الاقتصاد والثقافة اذ ليست الغاية عزلها ومعاقبتها، بل على العكس امدادها بكل القوى التي تعجل في تحررها.

وان الخطوة الايجابية الجدية الوحيدة التي سارت على صعيد التوحيد العربي والتي أيدها حزبنا ودعمها هي خطوة الميثاق العربي، فلأول مرة ظهرت في أقطار عربية امكانية تحقيق خطوة توحيدية سليمة الشروط ومستقلة عن تدخل الاستعمار ومصالح المستعمرين، وكان في مواقف الحزب من حكومة الائتلاف السابقة وفي البيان الذي رد به على البيان الوزاري لحكومة السيد سعيد الغزي القائمة والذي حجب به الثقة عن هذه الحكومة. . . توضيح للموقف الايجابي الذي يقفه حزبنا من القضية العربية ومن كل خطوة توسع نطاق التعاون العربي بشكل جدي وتقوي بالتالي وتوسع قاعدة النضال الشعبي في البلاد العربية في سبيل الوحدة الصحيحة.

وأخيرا لئن كان حزبنا يعالج قضايا السياسة العربية بهذا المنطق وبهذا الاسلوب فلأن ذلك مستمد من صميم فكرته ومن أساس تنظيمه الذي قام على اعتبار البلاد العربية وطنا واحدا ومجالا واحدا لنشاطه ونضاله[1] ولأن فروعه في البلاد العربية تكون وحدة نضالية هي التعبير الأول عن فكرة الوحدة التامة في المصير العربي.

والآن لننتقل لعرض مواقف الحزب الشيوعي من قضايا السياسة العربية من خلال نظرته الأساسية لهذه السياسة.

---

(١) أنظر المادة «١» والمادة «٢» من المبادىء العامة لدستور الحزب.

فالحزب الشيوعي يرى البلاد العربية بالدرجة الأولى مسرحا للتنازع الاستعماري ومنطقة استراتيجية تسيطر عليها دول المعسكر الغربي وتقوم مهمته الأولى على الافادة من تضارب مصالح هذا المعسكر ومن نقمة الشعب العربي عليه وارادته في التحرر، ليصل من ذلك الى فك الحصار الذي تسعى الدول الغربية الى ضربه حول الاتحاد السوفييتي ولشق طريق لدخول النفوذ السوفييتي الى هذه المنطقة. . ولا نقصد بذلك ان الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية تهمل كل اهتمام بقضايا هذه البلاد الاجتماعية والسياسية الداخلية، بل نريد القول ان كل هذه الأمور تأتي في درجة ثانوية جدا وان معالجتها من قبل الشيوعيين تخضع دوما لمنطق النظرة الأولى أي الصراع بين المعسكر الغربي والاتحاد السوفييتي وان هذه المعالجة يجب ان لا تتضارب بشكل من الأشكال مع المصلحة الرئيسية التي هي مصلحة السياسة السوفيتية، وهذا ما يفسر تقلبات مواقف الاحزاب الشيوعية في بلادنا من مختلف قضايانا القومية، ويفسر أيضا السكوت المتعمّد والاغفال المقصود لكثير من القضايا التي تهم العرب سواء في داخل الأقطار أو في العلاقات بينها كلما اقتضت المصلحة الشيوعية ان يضحى بهذه القضايا أو ان يرجىء طرحها لكي لاتستأثر بالاهتمام الذي يريد الشيوعيون ان يوجهوه كله نحو القضايا الخارجية.

الأحزاب الشيوعية منتشرة في أكثر الأقطار العربية ولكنها على ما بينها من وحدة مبدأية وسياسية وتنظيمية قوية تأبى ان يكون لهذه الوحدة تعبير على الصعيد العربي وتأبى ان تنظم نضالها وتوحده على أساس وجودها في وطن عربي واحد ولا تلتقي فيما بينهما الا كما تلتقي مع الأحزاب الشيوعية في البلاد الأجنبية أي على صعيد السياسة الدولية.

ويمكن توضيح الفوارق المميزة لمواقف الحزب الشيوعي من السياسة العربية في ثلاث قضايا.

* قضية فلسطين:

منذ طرحت قضية فلسطين والوطن القومي اليهودي وتدفق هجرة اليهود الى بلادنا، لم يكن للأحزاب الشيوعية أي موقف واضح جدي من هذا العدوان على

قوميتنا وأرضنا وسلامة مستقبلنا، بل كانت تكتفي عندما تضطر الى ابداء رأيها بأن تفرق بين زعماء الصهيونية المشبوهين بالمصالح الرأسمالية والصلات الاستعمارية وبين الشعب اليهودي الذي لم تنكر عليه الشيوعية حق هجرته الى فلسطين والاستيطان فيها.

وعندما طرحت قضية فلسطين في شكلها الجدي والحاسم منذ عام ١٩٤٧ ووقف الاتحاد السوفييتي موقف الدول الاستعمارية من اقرار تقسيم فلسطين وانشاء دولة يهودية فيها. . سارعت الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية الى تبني سياسة التقسيم ووقفت من نضال الشعب العربي في هذه القضية موقفا سلبيا انهزاميا، لأنه لم يكن يعنيها من كل هذا الأمر الا خدمة السياسة السوفيتية في ان تجلو بريطانيا عن قاعدة من قواعدها الاستراتيجية في الشرق الاوسط وان يكون للاتحاد السوفييتي مجال التدخل في هذه المنطقة عن طريق انشاء دولة اسرائيل.

* قضية المغرب العربي:

كانت الأحزاب الشيوعية في أقطار المغرب العربي حتى عام ١٩٣٦ أحزابا ثورية تناهض الاستعمار والبورجوازية المتعاونة معه، ولم يكن للحزب الشيوعي الفرنسي اذ ذاك الا اثنى عشر نائبا في البرلمان الفرنسي، ولكن بعد نجاح الجبهة الشعبية وحصول الشيوعيين على أكثر من سبعين مقعدا من هذا البرلمان وتعاونهم مع الاشتراكيين والراديكاليين بدلوا سياستهم تجاه المغرب ولم يعودوا يدعمون حقوقه ومطالبه في الحرية والاستقلال بحجة ان مصلحة الشعب في المغرب تتحقق باستمرار ارتباطه بفرنسا اذا كان الحكم الفرنسي تقدميا أكثر مما تتحقق في استقلاله عنها وما يتبع هذا الاستقلال من سيطرة للطبقة الاقطاعية والبورجوازية على جمهور الشعب وكان هذا هو أيضا موقف الحزب الشيوعي في سوريا من قضية المغرب ومن قضية سوريا نفسها وقضية استقلالها.

وقد تقلبت سياسة الأحزاب الشيوعية في قضية المغرب مع تقلبات السياسة السوفيتية كما هو شأنها. وفي سنة ١٩٤٥ اشترك الشيوعيون الفرنسيون في الحكم وسكتوا عن سياسة الحكومة الفرنسية من المستعمرات وعن المجزرة الهائلة التي

ارتكبها جيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر وقتل فيها ما يقرب من خمسين ألف عربي وسكتت الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية أيضا.

ثم بعد ان تكتلت القوى الرجعية في فرنسا وأمسى الشيوعيون فيها معزولين ومعارضين للحكم اعتدل موقفهم من قضية المغرب وأصبحوا مؤيدين لحرية الشعب فيه، ولضرورة تنفيذ الاصلاحات الملحة دون ان يصل بهم ذلك الى حد تبنى مطلب العرب في الاستقلال التام، وهذا النقص في تجرد السياسة الشيوعية وفي تجاوبها مع المشاعر والحاجات الشعبية القومية جعل الأحزاب الشيوعية في المغرب العربي عنصرا ثانويا في حركة النضال التي تقوم على جماهير الشعب العربي نفسه وفي ظل قيادة وشعارات قومية.

* قضايا الوحدة والتوحيد:

اذا كان الشيوعيون يتحاشون في المجال النظري والمبدئي مقاومة فكرة الوحدة العربية أو يضطرون أحيانا بدافع مسايرة المشاعر الشعبية ان يعترفوا بمبدأ الوحدة ويضيفوا الى شعاراتهم بعض التعابير القومية العربية حسب الظروف والمناسبات فانهم في المجال العملي.. كانوا حتى الآن مقاومين لكل خطوة توحيدية ومستنكفين عن المطالبة أو المساهمة في أي عمل انشائي في سبيل الوحدة. ذلك لأن الوحدة العربية ـ من وجهة نظرهم ـ تعتبر في الدرجة الأولى توحيدا للسيطرة والنفوذ الاستعماريين في هذه البلاد. وبالفعل كانت مشروعات التوحيد حتى الماضي القريب تطرح بشكل مشبوه من حكومات وفئات منقادة للنفوذ الأجنبي، ولكن هذا لم يمنع الشعب العربي من التعلق المتزايد بهدف الوحدة وبكل خطوة تقرب منه، ومن البحث عن الشروط السليمة الواقعية التي يمكن ان تتحقق فيها خطوات في هذا السبيل، وهذا ما يعبر عنه حزبنا اذ وضع شرطا أساسيا لهذه الخطوات يقضي بأن تكون مقوية ومنمية للنضال الشعبي وسليمة من التدخل الأجنبي. ولكن الشيوعيين يقفون عند الرفض والتجريح والتشويه والاتهام لكل خطوة من هذا النوع ولا يعنيهم في شيء أمر تلبية هذه الحاجة الحيوية التي تدفع الشعب العربي نحو الوحدة وقد ظهر ذلك واضحا في موقفهم من مشروع «الميثاق العربي» وهو أول مشروع للتوحيد

يأتي خاليا من كل اثر للنفوذ الاستعماري وموضع هجوم ومقاومة المعسكر الاستعماري بكامله. . ورغم ذلك فقد تجاهله الشيوعيون ولم يرفعوا صوتا لتأييده واكتفوا بتأييد السياسة الخارجية لحكومتي سوريا ومصر في مقاومة الأحلاف العسكرية الاستعمارية وخاصة الحلف «العراقي التركي».

وحقيقة الامر أن الشيوعيين في هذا الموضوع لايكتفون بانتهاج السياسة الموافقة لمصلحة السياسة السوفييتية من حيث نزاعها مع دول المعسكر الغربي في منطقة الشرق الاوسط. . بل يراعون أيضا في سلبيتهم من قضايا الوحدة والتوحيد مصلحة وجودهم كأحزاب شيوعية في البلاد العربية ويعرفون أن تحقيق الخطوات التوحيدية ينمي امكانيات الحركة العربية الانقلابية وامكانيات الانبعاث من الداخل ويضيّق بالتالي مجال عمل الشيوعيين وانتشارهم.

في السياسة الدولية:

ان نظرة حزبنا الى السياسة الخارجية تختلف عن النظرة الانتهازية والنظرة الشيوعية معا. ففي حين تبيح النظرة الانتهازية شتى الارتجالات والتناقضات والمعالجات الجزئية القصيرة النظر، وتفرض على السياسة الغموض والتذبذب الدائم، وتسمح بتسخير السياسة القومية للأغراض والمصالح الشخصية، وفي حين تنطلق النظرة الشيوعية من نقطة مذهبية مصطنعة هي خارج دائرة الامة العربية وجو روحها ومصلحتها وظروفها، فنظرة حزبنا مستمدة من عقيدة، ومتقيدة بالتالي بمبادئه الاساسية ونظرته الانسانية، فهي مرنة في حدود هذه المبادىء متجددة متجاوبة مع الحاجات الواقعية في نفس الوقت الذي تعمل فيه على تغيير الواقع وتجسيد مبادئها فيه. . أما نقطة انطلاقها فقومية عربية تعمل بوحي مصلحة الامة العربية وحاجاتها ورسالتها الانسانية.

وقد كانت مواقف الحزب في السياسة الخارجية والدولية تعبيرا عن هذه النظرة. . مقاومة عنيدة للاستعمار في أرض العرب في الدرجة الاولى ومقاومة واستنكار للاستعمار في كل بقعة من العالم ودفاع عن حرية الشعب العربي وجميع الشعوب المستعمرَة. ولكن الحزب لم يقع في درك سياسة الحكام والاحزاب

المتهاونة مع المستعمر أو المسخرة له والتي تبرقع تهاونها وتآمرها ببرقع الواقعية، ولم يقع كذلك في تناقضات الاحزاب الشيوعية في بلادنا عندما كانت تهادن المستعمر او تماشيه لان في ذلك مصلحة بعيدة لجميع الشعوب حسب ادعائها وللاتحاد السوفياتي في حقيقة الامر. ونحن نعتقد أن مصلحة الشعوب هي في أن يدافع كل شعب عن حريته واستقلاله وأن يناضل ضد كل معتد عليه وأن يقوم بين الشعوب المناضلة في سبيل حريتها تساند وتعاون حر لايفرض فرضا ولايضحي بمصلحة بعضها في سبيل مصلحة بعضها الاخر.

وليس ثمة ما يثبت أن كل دفاع عن مصالح الاتحاد السوفياتي وكل تقوية له يعودان حتما بالنفع على حرية الشعوب بالشكل الألي المتعسف الذي يفترضه المنطق الشيوعي خاصة اذا عرفنا أن الاتحاد السوفياتي رغم كونه دولة اشتراكية تقدمية، فان سياسته تخضع لمقتضيات مصلحته القومية ولمقتضيات الدولة المستقلة التي لاتنسجم دوما مع حاجات وظروف الشعوب الثائرة. فقد كان من مصلحة السياسة السوفياتية أن يعتدل الشعب اليوغسلافي في حركته التحررية أثناء الحرب الاخيرة وبعدها وفي تلبية حاجاته الاشتراكية الملحة، كما كان في مصلحة تلك السياسة أن يؤجل الشعب الصيني ثورته عقب الحرب الاخيرة ولكن اليوغسلافيين مضوا في طريقهم واضطرهم ذلك الى الانشقاق عن المنظمة الشيوعية، كما مضى الصينيون في طريق ثورتهم واضطر الاتحاد السوفياتي أن يتبناها ويوافق عليها بعد أن وجد نفسه أمام الامر الواقع.

ويمكن القول أيضا أن الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية بالرُغم من كونها أحزابا معارضة بعيدة عن الحكم وفي بعض الاحيان مضطربة وملاحقة.. فان سياستها نتيجة لتقيدها بالسياسة السوفياتية تعالج بعض المواقف معالجة انتهازية معتدلة، ذلك لان الشيوعية في الاتحاد السوفياتي حزب حاكم يراعي بعض الاعتبارات التي تراعيها كل حكومة.. وعندما تنعكس السياسة السوفياتية على الاحزاب الشيوعية في بلادنا يظهر أحيانا هذا التناقض أو التباين بين عقيدة الحزب الشيوعي الثورية وبين سياسته الانتهازية أو التطورية.

أما حزبنا فلا يحتاج في أي حال من الاحوال الى مثل هذا التباين بين العقيدة والسياسة لانه لايتقيد بسياسة خارجة عن نطاق الامة العربية ولا يستلهم الا حاجات الشعب العربي وهي حاجات ثورية لاتقبل المساومة والاعتدال.

وتبعا للملاحظات السابقة فقد نظر حزبنا الى سياسة المعسكرات التي ظهرت على أثر الحرب العالمية الاخيرة والى التناحر بين المعسكر الغربي والمعسكر الشيوعي نظرة استقلال وحياد، فاعتبر أن لامصلحة للعرب ولا لشعوب العالم في الانجرار وراء هذه السياسة والانحياز الى أحد الطرفين، مع التفريق الدائم بين موقف العرب القومي، الذي هو موقف نضال عنيف ضد دول المعسكر الغربي المستعمر لبلادهم، وبين موقفهم الدولي الذي عبروا عنه بالحياد الايجابي والذي يقصد منه . . «من الناحية المبدئية» . . عدم الاقرار بمشروعية الانقسام على أساس الحلين الرأسمالي والشيوعي وضرورة تجاوزها الى ماهو أعلى وأكثر حرية وايجابية «ومن الناحية العملية» عدم تشجيع التناحر الدولي وذوبان جميع الشعوب في معمعة هذا الصراع، بل فسح المجال لتعايش الشعوب ضمن مختلف الانظمة الملائمة لحاجات وميزات كل منها. وقد التقى الشيوعيون مع دول الغرب الاستعمارية في مقاومة الاتجاه الحيادي وأتهامه طوال سنوات . . الى ان فرض هذا الاتجاه نفسه وخاصة بين شعوب آسيا وأفريقيا، وسلمت الشيوعية بمشروعيته اذ وجدت فيه خطوة نحو تقليص النفوذ الغربي في هذه البلاد بينما لايزال المعسكر الغربي يقاومه بمحاولاته المتكررة لربط هذه البلاد بأحلافه العسكرية. وكان نجاح الاتجاه الحيادي تعبيرا قويا عن ارادة الشعوب في التحرر من سيطرة الدول الكبرى، وبالنسبة الينا تعبيرا عن ارادة الشعب العربي في التحرر من الاستعمار وبناء المجتمع العربي الاشتراكي على أسس قومية متلائمة مع روح أمتنا ومتجاوبة مع حاجاتها.

وتحسن الاشارة هنا الى أن سياسة الحياد التي قال بها حزبنا بعد الحرب الاخيرة تتصل بموقفنا العقائدي الذي عبرنا عنه منذ تأسيس الحزب والذي يؤمن باتجاه ثالث فوق الاتجاهين البارزين في هذا العصر ينظر الى علاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة الشعوب بعضها ببعض، نظرة تختلف عن الديمقراطية الشكلية للمجتمعات الرأسمالية، وعن

التنظيم الشيوعي المصطنع وتجد تعبيرها الحي في النظام الاشتراكي القومي المقدس لكرامة الانسان وحريته والموصل الى تعاون حر بين شعوب اشتراكية حرة.

وعندما نقارن بين موقف حزبنا وموقف الاحزاب الشيوعية في السياسة الخارجية فهذا يعني أننا نقف موقفا معينا من سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية لانها هي منبع السياسة الخارجية لتلك الاحزاب. ولنقل منذ البدء، بأننا رغم استقلالنا عن هذه السياسة، لم نضعها في يوم من الايام في صف واحد مع سياسة الدول الاستعمارية، بل وجدنا فيها دوما معدلا كبيرا لطغيان الدول الرأسمالية، كما وجدنا في الاتحاد السوفياتي عاملا مهما في تشجيع قوى التحرر في العالم (في الاعداد الاولى من جريدة البعث سنة ١٩٤٦ كنا نطالب الدول العربية بايجاد علاقات تعاون مع الاتحاد السوفياتي ضد الاستعمار المتسلط على بلاد العرب. كما نريد أن نذكر في هذا المعرض ما كان عليه موقف الاتحاد السوفياتي من دعم قضية استقلال سوريا ولبنان أمام هيئة الامم المتحدة..).

أما سياسة الاتحاد السوفياتي بالنسبة الى البلاد العربية. فكانت حتى الفترة الاخيرة لاتقيم وزنا للشعب العربي كقوة نضالية في العالم، بل تكتفي بالنظر الى بلادنا من خلال وضعها الجغرافي وكونها محتلة من قبل الدول الغربية وفي الحرب الاخيرة وبعد دخول روسيا في حربها ضد النازية كان موقفها موقف الحليف للدول المستعمرة لبلاد العرب، وبعد الحرب كان اهتمامها بالبلاد العربية لايتعدى الحرص على بقاء الاوضاع الراهنة ومنع زيادة توسع الدول الغربية فيها. وان ضعف الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية وبعدها عن التأثير الجدي في سياستها، وبعد الاتحاد السوفياتي عن الاتصال بواقع البلاد العربية وما يتركز فيها من نضال شعبي قوي وتقدمي ضد الاستعمار، ومن ثم نظرته الخارجية وغير الجدية لمستقبل هذه البلاد ولتطورها.. كان يلجؤه الى مثل هذه السياسة التي لاتقيم وزنا للشعب العربي في السياسة الدولية ولاتعتبر الا الوضع الاستراتيجي للبلاد العربية كبلاد خاضعة للمعسكر الغربي.

ولكن تبدلا جديا ظهر في السياسة السوفياتية تجاه البلاد العربية في الآونة الاخيرة. وذلك ليس في مجرد الاهمية التي بدأت تأخذها القضايا العربية في السياسة الدولية.

الطليعة العربية في تونس
كراسات عقائدية

بل لان الاتحاد السوفياتي بدأ يدرك مدى طاقة الشعب العربي النضالية. كقوة تحررية وتقدمية، ضد الاستعمار الغربي، كما يدرك ما أخذ يفرضه هذا الوعي الشعبي في النضال على سياسة حكومات بعض الاقطار العربية من استقلال عن توجيه وسيطرة دول المعسكر الغربي من رفض للتحالفات العسكرية معها، فتبدل سياسة الاتحاد السوفياتي نحو الاقطار العربية ـ خاصة مصر وسوريا ـ وما تظهره دول المعسكر الشيوعي من استعداد للدعم الاقتصادي والتزويد بالعتاد الحربي، ثم ما الزمت به هذه السياسة الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية من تبديل في خطتها، في تقريبها من الاحزاب التقدمية وفي تبنيها لبعض الشعارات القومية العربية. كل ذلك انما جاء نتيجة لبروز نضال الشعب العربي في مختلف أقطاره بشكل تحرري ومعاد للاستعمار الغربي. فالتقاء المصلحة السوفياتية مع النضال العربي ضد استعمار المعسكر الغربي هو الذي جعل الاتحاد السوفياتي يقف هذا الموقف الايجابي من بعض الاقطار العربية، الموقف الذي ليس له من علاقة بوضع الاحزاب الشيوعية في هذه الاقطار.

الشيوعيون وسياسة التعاون:

عندما ظهر حزبنا قابله الشيوعيون بالعداء الشديد وكالوا له الاتهامات بالنازية والرجعية وركزوا عليه هجومهم متناسين الاستعمار وعملاءه والطبقة الاقطاعية والرأسمالية وناظرين اليه على أنه العدو الاول. واستمروا في هذا الموقف حتى نهاية الحرب ثم اعتدلت دعايتهم الرسمية بعض الاعتدال ولكن توجيههم الداخلي لاعضائهم لم يتبدل. وكانوا الى زمن قريب جدا يصنفون حزبنا مع الاحزاب البورجوازية التي لاتنوي جديا أن تقاوم الاستعمار ولاتستطيع أن تمثل مطالب الشعب تمثيلا ثوريا. فمواقف الحزب القومية ضد الاستعمار الغربي زمن الحرب وبعده، ونضاله في سبيل الوحدة العربية. كانت تفسر بأنها خدمة غير مباشرة للاستعمار. ونضال الحزب في سبيل قضية الفلاحين فسر أيضا بأنه خدمة للاقطاعية والرجعية كيما تبطش بالشعب. وكانوا وما زالوا يفرقون بين قيادة الحزب وقاعدته وبين أشخاص وأجنحة من الحزب الى آخر هذه الاساليب المعروفة.

وتزول الدهشة عندما نعرف أن هذا الاسلوب ليس مقتصرا على الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية، بل هو أسلوب الاحزاب الشيوعية في كل بلاد العالم، وهو موقفهم من الاحزاب الاشتراكية والتقدمية بصورة عامة، لانهم يرون فيها منافسا لهم على قيادة الشعب والطبقة العاملة، ويشتد هذا العداء والهجوم اذا كانت بعض هذه الاحزاب الاشتراكية قومية في نظرتها وسياستها.

ان سلوك الشيوعيين مع الأحزاب الاشتراكية والثورية غير الشيوعية ينبع من منطق فكرتهم الثورية الذي لايجيز تجزئة الحركة الثورية، والتجزئة الوحيدة التي يجيزها بل يفرضها فرضا، هي الانقسام بين الحركة الشعبية الثورية وبين أعدائها الرأسماليين والبورجوازيين. وهذا المنطق يعمل على توسيع الانقسام وزيادة حدته، ومن الطبيعي اذن أن ينظر باستياء واتهام الى الأحزاب التي تنافسه على تزعم هذا الانقسام، لذلك يركز عليها هجومه وضغطه لكي لايبقى أمامها الا أحد مخرجين.. اما أن تذوب في صف الشيوعية واما أن تنحاز الى صف أعداء الشعب.

الا أن بعض التبدل في السياسة الشيوعية قد حصل في الأونة الأخيرة سواء في المجال الدولي أو المجال الداخلي، أي ان الاتحاد السوفياتي بعد أن قطع شوطا بعيدا في تركيز ثمار الثورة الروسية الاشتراكية وتدعيم كيان هذه الدولة القومي، وبعد أن برهنت له الوقائع على ان امكانيات الثورة العالمية ليست وشيكة التحقق، أقر أخيرا بامكان التعايش مع الدول الأخرى ذات النظم المختلفة، وذلك دون أن يهمل دعوته العالمية. وانعكست سياسته الدولية هذه على سياسة الاحزاب الشيوعية بالنسبة الى مواقفها من الأحزاب اليسارية داخل البلدان التي تنتشر فيها هذه الأحزاب، وأدى أيضا الى نوع من التعايش لايتنازل فيه الشيوعيون عن مراميهم المكتومة في طرح الحركات الثورية غير الشيوعية من الساحة والاستئثار وحدهم بها.

الا أن الأحزاب الشيوعية قد هجرت سياسة العزلة منذ نحو عشرين سنة ووجدت مصلحتها في الانبثاث بين الأحزاب الأخرى، والتقدمية منها بصورة خاصة، ودعوتها بين الحين والأخر الى تكتلات لدفع خطر مشترك أو ترويج شعار أو تحقيق هدف آني. وهي تعلم ان اشتراكها مع أحزاب لا تدانيها في ضيق المذهبية ودقتها وفي قوة

التنظيم وبراعة الدعاية والاستغلال يعود عليها دوماً بالربح، بينما يفقد الأحزاب المتعاونة معها شيئا من وضوح هويتها وسلامة أسلوبها وعدد أتباعها. وهذا ما حدث أيضا بالنسبة الى الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية وخاصة في سوريا. ففي زمن الحرب العالمية اغتنم الشيوعيون فرصة محالفة الاتحاد السوفياتي للدول الغربية، وسكوت هذه الدول عن نشاطها في البلاد العربية، وأخذوا يوسعون صلاتهم في أوساط السياسيين الانتهازيين وكبار موظفي الدولة تحت ستار تكتلات لمكافحة الفاشستية والانتصار لقضية الحلفاء والدول الديمقراطية.. وبعد الحرب حولوا شعاراتهم نحو الدفاع عن الاستقلال والسلام العالمي ونحو مقاومة المشاريع الاستعمارية في الشرق الأوسط وهم في هذه المحاولات الرامية الى الانبثاث والانتشار وترويج الشعارات، لايمتنعون عن التعاون مع أية فئة وشخص من أي لون كان، لأن نتيجة هذا الأسلوب أن يظهر الشيوعيون أمام الرأي العام على قدم المساواة مع الفئات الوطنية فتزول عنهم صبغتهم القديمة التي كانت تعزلهم عن الشعب باعتبارهم حزبا يستمد سياسته وتعليماته من خارج البلاد.

وليس مستغربا أن يلاقي هذا الأسلوب في مجتمعنا رواجا ونجاحا بسبب كثرة العناصر الانتهازية التي لاتصدر عن عقيدة ولا تتقيد بمبدأ، والتي يقدم لها الشيوعيون مجالا للشهرة والبروز وتبادلا في المنفعة الآنية. يضاف الى هذه العناصر فئة غير قليلة من الأفراد الذين لايقوون على تحمل مسئولية النضال الجدي في سبيل تحرر البلاد وتقدمها، ومن أفراد ذوي وجاهات ومصالح تتعارض مع مصلحة الاتجاه الشعبي فيأتي الشيوعيون ويقدمون لجميع هؤلاء فرصة الاصطباغ بالصبغة التقدمية دون أن تكلفهم هذه الصبغة أية تضحية بمصالحهم وأي تبديل في سلوكهم بل على العكس تتيح لهم مجالا لتقوية وجاهاتهم وتغطية مصالحهم وتصرفاتهم الرجعية بستار التقدمية ومن هؤلاء عادة تشكل جماعات أصدقاء الاتحاد السوفياتي والشباب الديمقراطي وأنصار السلم وما الى ذلك من تسميات، وتفتح أمام هؤلاء أبواب الرحلات المجانية الى المؤتمرات العالمية والسياحات الدورية مقابل توقيعهم على العرائض والبرقيات واعطاء التصريحات والتبشير بالشعارات الشيوعية.

ومن مرامي هذا الأسلوب أيضا تجميد قسم من الطبقة المثقفة، المهيأ بحكم ثقافته لأن يكون مناضلا في صف الحركة الشعبية التقدمية، والذي لم يختر بعد طريقه ولم يقبل بالحزبية الشيوعية مجالا لعمله ونضاله، وعزل هذا القسم عن الانضواء في حركة أو اتجاه آخر واشغاله بهذا النوع من النشاط وفي هذه الاشكال من المنظمات ولصبغه عن هذا الطريق تدريجيا بالصبغة الشيوعية.

أما موقف الشيوعيين من حزبنا بصورة خاصة فقد اتخذ بعد الحرب شكل الهجوم المرفق بالضغط في سبيل التعاون، ويجري هذا الضغط من قبل الشيوعيين مباشرة ومن قبل أنصارهم في وقت واحد.. وواضح ان الشيوعيين يحرصون منذ سنوات عدة على هذا التعاون مع حزبنا ويسعون اليه لأسباب عديدة أهمها:

١ - صفة حزبنا العقائدية، وهويته الاشتراكية الانقلابية، وقاعدته الشعبية النضالية التي تريد الشيوعية بث دعوتها وشعاراتها فيها ومنازعتنا قيادتها وتوجيهها.

٢ - التقاء الشيوعيين مع حزبنا في بعض الشعارات السياسية.. مقاومة الاستعمار وأحلافه العسكرية، مقاومة الشركات الأجنبية، وبعض الشعارات التقدمية الداخلية انتصارا لقضايا العمال والفلاحين.

٣ - قوة حزبنا الجماهيرية والثقة القومية التي يتمتع بها، تشعران الشيوعية بالحاجة الى التعاون معنا لأن قوتهم الخاصة بهم لاتكفي بمفردها حتى لمجرد فتح معركة نضالية.. فضلا عن عدم كفايتها لنجاح هذه المعركة.

٤ - ويرمي الشيوعيون من وراء سعيهم للتعاون معنا، فضلا عن تأييد شعار أو انجاح مطلب، الى تشويه وتشويش حركتنا وافقادها استقلالها واسبقيتها في قيادة الشعب وخلق الالتباس لدى الرأي العام بين حركتنا والحركة الشيوعية وخلق التشويش والاضطراب في داخل حزبنا من امتزاج أسلوبنا وشعاراتنا بالأسلوب والشعارات الشيوعية، والتعاون بهذا المعنى هو شكل آخر مغطى من أشكال العداء الذي تضمره الشيوعية للأحزاب والفئات التقدمية والثورية.

موقف حزبنا من الجبهات الائتلافية ومن التعاون مع الشيوعيين

لنتساءل أولا عن نظرة حزبنا الى التعاون مع الفئات الأخرى بصورة عامة.. ان

حزبنا هو حركة قومية انقلابية وجدت لتوجد انقساما عميقا في حياة العرب تكون نتيجته بناء أسس جديدة صحيحة لهذه الحياة يرتفع عليها بناء البعث العربي الجديد. هذه هي الغاية للحركة، ولكن المراحل العملية الموصلة الى هذه الغاية لايمكن أن تكون كلها متماثلة ولايمكنها الا أن تراعي ضرورات العمل الواقعي بصورة عامة، أي الحد الأدنى من الاعتراف بالواقع كيما تستطيع فكرتنا التفاعل مع هذا الواقع والتأثير فيه وبالتالي السيطرة عليه وخلق المجتمع الجديد من داخله، والا أن تراعي أيضا الضرورات الخاصة بكل ظرف متوخية في ذلك كله أن تحقق تقدما متينا صلبا للفكرة لاتراجع بعده.

قلنا ان حركتنا قومية انقلابية، وهذا يعني ان انقلابيتها محصورة في نطاق الامة العربية ومتوخية بعث قوميتها لاطمس هذه القومية ومحوها، ولا تعتمد في تحقيق انقلابنا ـ كما تعتمد الشيوعية على الثورة العالمية وتضامن الطبقة العاملة في جميع البلدان ضد الطبقة الرأسمالية ـ وانما أهم اعتمادنا على قوة شعبنا وشعوره بشخصيته ووعيه لمتطلبات تحرره ونهضته، هذا مع العلم بأن فكرة حزبنا لاتفهم الانبعاث القومي بأنه مستقل ومنفصل عن اتجاه التاريخ، بل تحرص باصرار على الانسجام بين الشيئين وبالتالي تعتمد أيضا على الحركة التحررية التقدمية عند شعوب العالم الا انها تعتبر أن مساهمتها في هذه الحركة العالمية تتحقق بتركيز جهودها على ايقاظ وتحرير القوى الانقلابية في الشعب العربي، وليس كما يعتبر الشيوعيون أن هذه المساهمة يجب أن تكون بالخضوع لتوجيهات ومصلحة المنظمة الشيوعية العالمية المتجسدة عمليا بالاتحاد السوفياتي.

وهذا الاعتماد على الشعور القومي يفرض أن يكون الانقسام الذي يعمل حزبنا على خلقه في المجتمع العربي انقساما قوميا بالدرجة الأولى، وأن تكون المصالح الطبقية مثل الجسم والثقل الواقعي لهذا الانقسام القومي وأن يمكن بالتالي توافر صعيد قومي تلتقي عليه الأمة في بعض الحالات التي يكون فيها الكيان القومي مهددا بخطر استعماري وخارجي كبير واضح يكون فيه الالتقاء على الصعيد القومي المشترك مساعدا في النتيجة على توسيع هذا الانقسام القومي الذي نريده وزيادته وضوحا لمصلحة اتجاهنا

الانقلابي لا أن يحصل العكس فنسمح للطبقة المستغلة والتي يختبىء وراءها الاستعمار نفسه، أن تتذرع بين الحين والآخر بالأخطار الاستعمارية والخارجية لتضعف الحركة الانقلابية وتطمس اتجاهها وتستدرجها الى مستوى التعاون الانتهازي والمساومات المصلحية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه بالنسبة للوحدة العربية وواقع التجزئة التي تشكل خطرا لايقل عن خطر الاستعمار ولا ينفصل عن سياسة الاستعمار. وفي هذه الحالة أيضا تكون مشروعية الالتقاء على الصعيد القومي مشروطة ايضاً بان تكون حصيلة هذا الالتقاء تقوية للحركة الانقلابية واتجاهها لامجالا لاستغلال الفئات الحاكمة لقضية الوحدة بقصد ضرب الحركة الانقلابية. والضمانة في جميع هذه الحالات هي أن يكون حزبنا هو الذي يختار الظرف والزمن لمثل هذا الالتقاء وأن يدخل التعاون وهو مسلح بنضال القوى الشعبية التي تضغط وتهدد وتفرض بقوة نضالها منع استغلال الفئات الرجعية لهذا التعاون.

فانه لايفترض تكتل جميع الاحزاب والفئات، بل من واجب الحزب أن يسعى لقصر التعاون، عندما يكون ضروريا على الأحزاب والفئات المتوسطة بينه وبين الطبقة المستغلة ذات المصالح الكبرى ويسعى الى أن يجر هذه الفئات المتأرجحة الى طرفه وأن يبث شعاراته بين قاعدتها الشعبية، ولكن ذلك يشترط شروطا واضحة وحسابات دقيقة وظروفا ملائمة لكي يكون الحزب دوما في هذا التعاون المحتمل هو الموجه والمسيطر وأن يحتفظ ضمن هذا التعاون بصفته الانقلابية فلا تجرفه مصالح الفئات الأخرى وأن يخرج دوما من هذه العمليات وقد ازدادت انقلابيته وضوحا وقوته النضالية نموا وتماسكا.

وأخيرا يجيز حزبنا التعاون كوسيلة للدفاع عن النفس عندما تتكتل جميع القوى الرجعية المدعومة بالقوى الاستعمارية بقصد القضاء على الحركة الانقلابية، يغدو من واجب الحزب أن يفك الحصار المضروب حوله ويفيد من تناقض المصالح بين هذه القوى ليجتذب اليه أقلها خطرا ورجعية في سبيل تفريق تكتلها.

ومن الضروري الملاحظة أن التعاون لايعني تعاونا في الحكم، بل يجب أن يبقى في نطاق المعارضة والنضال ما دام الحزب لم يبلغ حدا من الانتشار والتنظيم يضمن دعم

أكثرية الشعب له دعما نضاليا واعيا منظما يمكنه من توجيه الحكم حسب برامجه وأهدافه ومن تحقيق اصلاحات أساسية فيه.

كما انه لابد لنا من التمييز أيضا بين التعاون العارض، الذي يقع حتى بين أكثر الهيئات والأحزاب عداء وتعارضا نتيجة التقاء في بعض الظروف والشروط وحول شعار أو في سبيل مطلب أو مصلحة، وبين التعاون المنظم والمرسوم الذي له شروطه وأهدافه ومداه وهو ما نسميه بالجبهة والتكتل والائتلاف.

واذا كانت الأحزاب والهيئات السياسية القائمة تدعونا دوماً للائتلاف والتعاون والتكتل في شتى المناسبات، وخاصة بعد أن أصبح لحزبنا قوته الشعبية وممثلوه في البرلمان، فان حزبنا أيضا قد سبق ودعا الى قيام تكتل وتعاون بينه وبين بعض الأحزاب والهيئات السياسية في مواقف وطنية وقومية وفي قضايا داخلية أساسية وحاسمة، كما اشترك حزبنا في تكتل وائتلاف مع أحزاب وهيئات بهذا القصد.

ولقد كان نضال حزبنا دائما ضد الفئات الحاكمة والأحزاب الرجعية والمسايرة لسياسة الاستعمار والمستغلة لجماهير الشعب والمعرقلة لتوحيد أجزاء الوطن، نضالا جذريا عنيدا، ولكن هذا كله لم يمنعنا من تقدير الظروف تقديرا واقعيا ومن التعاون في مناسبات قليلة وواضحة مع بعض هذه الأحزاب، اما لتقوية نضالنا ضد الاستعمار - وهو أكبر خطر على وطننا في المرحلة الحاضرة واما لتقوية نضالنا الداخلي ضد الرجعية المتحكمة وضد تآمرها على الحريات العامة والحياة الديمقراطية، ولكي نحقق بهذا التعاون المؤقت كسبا للوعي الشعبي الثوري وضمانة لبعض النظم الملائمة لانتشار هذا الوعي. وكان هذا التعاون الذي نادى به حزبنا يمكّن الحزب من فرض توجيهه وشعاراته على الفئات المتعاونة معه ويتيح له الاتصال والانتشار بين أوساط وجماهير جديدة ويحفظ له رغم ذلك وضوح هويته واستقلال شخصيته.

والفرق واسع بين هذا النوع من التعاون وبين التعاون الذي تدعو اليه وتمارسه الأحزاب الرجعية والانتهازية، اذ ان هذه الأحزاب قائمة في أساس تكوينها على التجمع المصلحي لتقاسم المنافع. ولئن كانت تدعو دوما لوحدة الصف فليس لدعوتها هذه أي مبدأ أو شعار واضح، بل ان الغاية منها على العكس انما هي الحيلولة دون

بلوغ القضية القومية حدا من الوضوح يعجل من سير الحركة الثورية وحل التناقض القائم في صميم حياتنا القومية. وقد تدعو هذه الأحزاب الى تعاون عام في صف وطني واحد ضد الاستعمار واسرائيل، وهذا يعني المحافظة على السياسة والأوضاع الراهنة التي هي من مصلحة هذه الأحزاب، والحيلولة دون أي تجديد أو تبديل أساس يخلق من الشعب قوة جدية في وجه الاستعمار واسرائيل، فكأنهم بهذه الدعوة يريدون أن يبقى الاستعمار وأن يستغل خطر اسرائيل، وان هم هذه الأحزاب هو في حقيقة الأمر عرقلة سير الحركة الانقلابية المهددة لمصالحهم ووجودهم وتأجيل الانقسام القومي العميق الذي تخلقه هذه الحركة رامية من وراء خلقه الى رفع الظلم والاستغلال عن كاهل الشعب وتفجير الامكانيات الشعبية الهائلة التي لاتزال مخنوقة. وكأن الأحزاب المحافظة بهذا المنطق تنكر على حركتنا مبررات وجودها في هذه المرحلة التي لاتزال فيها البلاد العربية خاضعة للاستعمار ومعرضة لخطر اسرائيل، في حين اننا نعتبر ان وجود حركتنا وسيرها في طريقها الانقلابي النضالي ومحافظتها على شخصيتها المستقلة هي من أكبر العوامل المساعدة على تحرير الوطن العربي من الاستعمار واسرائيل وان التعاون الذي نجيزه بالتالي ونرى فيه نفعا للقضية القومية ليس هو الذي تدعونا اليه، بل هو الذي يفرضه حزبنا على هذه الفئات او على بعضها والذي يضطرها فيه الى توضيح هويتها وفضح تناقضها والتخلي عن بعض مصالحها للانقياد لشعارات الحركة الثورية ودعم النضال الشعبي، حتى اذا كانت خسائرها من جراء هذا التعاون تربو على مكاسبها وتراجعت عن السير فيه كان ذلك شاهدا على ضعف وطنيتها ورسوخ نفعيتها وعامل تهديم لها وتقوية لنضال الشعب.

وليكن دوما واضحا في أذهاننا اننا بالرغم من اعترافنا بامكان التقاء الأحزاب الوطنية في ساعة الخطر لدفع غزو أجنبي. التقاء مؤقتا تضمنه يقظة الشعور القومي وسيطرة الروح الشعبية الجماعية، اننا نقف دوما موقف الحذر سواء من دعوة الأحزاب المحافظة أو من دعوة الأحزاب الشيوعية الرامية كلها الى خلط الحابل بالنابل وطمس وجه الحركة العربية الانقلابية. وخلافا لما يحاول الرجعيون أن يوهموا به الناس بأن نضال هذه الحركة يفرق كلمة الامة ويهدم قواها في أوقات الخطر، نؤمن نحن بأن نضالنا لايفرق

الا الخونة والدخلاء والنفعيين عن مجموع الشعب السليم، وان نضالنا لايهدم الا عراقيل الظلم والفساد والاستغلال المانع لانطلاق شعبنا فهو اذن نضال موحد وبناء.

وبديهي أن التعاون في نظرنا ليس الا أسلوبا سياسيا تقتضيه قضية وطنية أو مطلب شعبي أو مرحلة قومية معينة، وليس هو غاية في ذاته أو مبدأ نسعى اليه، لأن المبدأ يقوم على الأسس الدائمة الثابتة، وهذه بنظرنا تكوّن حزبا لاجبهة أحزاب. وما ذلك الا لان حزبنا حزب انقلابي، والحزب الانقلابي هو الذي يؤمن بحل وحيد لمشاكل الأمة لايرضى عنه بديلا ولايقبل المساومة فيه، لذلك فهو يحرص على الاحتفاظ بهويته الخاصة وتكوينه المتين الذي لاتضيع حدوده وتلتبس بأحزاب وهيئات أخرى. وبذلك ايضا فهو يحرص على الصفة الموقوتة والعارضة للتكتل والتعاون مع غيره كما انه لايقبل اطلاقا ان يكون التعاون على حساب مبادئه ولا ان يكون التكتل انحرافاً به عن اسلوبه وتنظيمه.

والحزب الانقلابي الذي يؤمن بأنه هو الضمانة بالنسبة للشعب وهو المستقبل يحرص أيضا ان تكون نوعية الجبهة وهوية الهيئات المشتركة فيها منسجمة مع شعارات الجبهة. «فالحزب مثلا في دعوته ومشاركته في تآلف وتعاون مع أحزاب وهيئات أخرى للنضال في سبيل مطالب وطنية ضد الاجنبي أو في سبيل مطالب عربية وداخلية، ظل خلال الحرب وفي السنوات الاولى التي تلتها يرفض مساهمة الشيوعيين ويعتبرهم غرباء عن هذه القضايا... لأن موقفهم من هذه القضايا كان بالفعل سلبيا اذ كانوا يعارضون صراحة الدعوة للقضية العربية كما كانوا حلفاء لمستعمري بلاد العرب.. كما ان حزبنا رفض دائماً التعاون مع الحزب القومي السوري ورفض اشراك هذا الحزب أو الالتقاء معه في أي تعاون أو تكتل». فحزبنا يفضل اذن أن يعمل مستقلا الا في ظروف خاصة تقتضيها مصلحة الأمة ومصلحة الحزب فالحزب مثلا عمل في جبهات من عناصر وأحزاب بعيدة عن أهدافه وأسلوبه لمقاومة الحكم الدكتاتوري البوليس في عهد الشيشكلي للاخطار الكبيرة التي كان يهدد بها استمرار هذا الحكم لكيان البلاد وكيان الحزب. كما ساهم حزبنا في التعاون مع الاحزاب والهيئات البرلمانية التي دعمت حكومة الائتلاف الماضية، وذلك لمقاومة سياسة معينة واتجاه خطر عند بعض الهيئات

والاحزاب السياسية الاخرى في محاولتها جر البلاد لسياسة التعاون مع الدول الاستعمارية والانضمام لتحالفاتها العسكرية . ولكن عوامل تكوين هذه الجبهة وهذا الائتلاف والأسس التي قاما عليها، كانت في أكثرها سلبية وموقوتة اذ تتخلى العناصر المحافظة والرجعية عن المشاركة في مثل هذا التعاون عند أول خطوة ايجابية، لأن الايجابية تعنى دائما بالنسبة الينا طرح حلول تقدمية وشعارات وأهداف شعبية بناءة وهذه تتعارض كل التعارض مع تكوين وأخلاق هذه الهيئات والاحزاب السياسية المحافظة .

لنعد هنا الى جبهة ميثاق حمص، وهي التعاون الجدي الوحيد الذي اشترك فيه حزبنا مع أحزاب.وجماعات أخرى على أساس التكتل في جبهة لها شروطها المعينة وأهدافها المحددة وميثاقها الواضح . ولنتوقف قليلا عند هذه الجبهة كمثال للتعاون، لنرى أسس ومبررات قيامها وفائدة الحزب منها. . في المرحلة الاولى من حكم الشيشكلي خلت ساحة النضال ضد الدكتاتورية والاستبداد الا من العناصر النضالية لحزبنا، بينما اعتزل العمل والمساهمة القسم الكبير من السياسيين والاحزاب ليبقوا خارج المعركة وعلى هامش الحوادث يترقبون النهاية، وبقى حزبنا لوحده يعاني التنكيل والتشريد والسجن والاضطهاد، بينما كان الشيشكلي يسعى من جهته لاستدراج قسم من هؤلاء السياسيين والهيئات للتعاون معه وللسير مع حركته .

وأمام هذه الاخطار الكبيرة التي كانت تهدد حزبنا وتهدد شعبنا من استمرار هذا الحكم البوليس الارهابي، وقف حزبنا يدعو للتعاون وتجميع القوى بين كافة العناصر الخارجة عن حكم الشيشكلي والمتعارضة معه، للنضال ضد هذا الخطر المشترك وليقف بهذه الفئات والاحزاب موقفا معارضا يمنعها من الانزلاق نحو سياسة التعاون مع حكم الشيشكلي وليخرج بها عن موقف التفرج والانتظار ولكن طبيعة هذه الاحزاب والهيئات وعدم استعدادها للتضحية وللسير مع حزبنا في عمل نضالي جريء، جعلها تستنكف عن مثل هذا التكتل والتعاون طيلة المرحلة الاولى من نضالنا السري، حتى اذا كان الظرف الذي أعلن فيه الشيشكلي دستوره واضطر معه الى تخفيف جو الضغط والارهاب في الفترة التي سبقت انتخاباته اهتبل الحزب هذه المناسبة وقام باتصالات

واسعة مع عدد من الاحزاب والهيئات السياسية لتوحيد الجهود والقوى ضد حكم الشيشكلي. وكانت الخطوات التي سرنا بها نحو جبهة الميثاق، الجبهة التي كانت شعاراتها ـ زوال الحكم العسكري ـ اطلاق الحريات العامة وعودة الحياة الدستورية للبلاد ـ ودعت الجبهة الى مقاطعة الانتخابات «ولم يخرج عن اجماعها في هذا الموقف الا الحزب الشيوعي الذي اشترك في الانتخابات وبدل موقفه من حكم الشيشكلي منذ ذلك الحين وقد تعرضنا لهذا الموقف في بحثنا هذا». وكان من نتيجة ذلك كله تأزم الاوضاع والظروف حول حكم الشيشكلي واحداث العصيان والانقلاب عليه.

ففي جبهة ميثاق حمص كان حزبنا هو الداعي والموجه، كما احتفظ دائما بهويته وبشعاراته النضالية حتى ضمن الجبهة، وانصب جهده الناجح على تكتيل هذه العناصر الى جانبه وعلى شق تعارض وافتراق كبير بينها وبين حكم الشيشكلي بالزامها باتخاذ مثل هذا الموقف. كما حاول الحزب جر جماعات الميثاق نحو خطوة ايجابية في ان تتبنى في ميثاقها موقفا تقدمياً واضحاً في السياسة الداخلية والعربية والدولية، وهنا ظهر تردد هذه الجماعات، واحجامها وحرصها على التعمية والغموض في بحث هذه القضايا، ولم تقبل في أكثريتها بمثل هذه الخطوة، الشيء الذي ظهرت نتائجه عند سقوط حكم الشيشكلي ودعوة جماعات جبهة الميثاق لوضع حل لقضية الحكم في البلاد وما رافق ذلك من مشاكل وأزمات.

والآن وبعد ان بينا موقفنا من التعاون مع الاحزاب والهيئات السياسية المحافظة والتقليدية.. لنعد لتحديد موقفنا العملي من التعاون مع الشيوعيين ومن دعوتهم التي يلحون علينا بها للاشتراك معهم في (جبهة وطنية).

يجب ان نفرق أولا بين الالتقاء والتعاون، وقد بينا في هذا البحث ان السياسة الشيوعية بعد الحرب العالمية الاخيرة لم تعد تصطدم بالمصلحة القومية العربية ذلك الاصطدام الفاضح الذي نتج أثناء الحرب عن تحالف الاتحاد السوفياتي مع الدول الغربية المستعمرة لبلاد االعرب، وبينا انه باستثناء موقف الشيوعيين من تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧، فان سياستهم الخارجية في بلاد الشرق العربي على الاقل، كثيراً لما تلتقي مع سياسة حزبنا بالرغم من اختلاف الدوافع والاهداف. وقد يحدث هذا الالتقاء

أيضا في بعض المواقف الداخلية ولكن هذا كله لايعني اننا نتعاون مع الشيوعيين ولايعني ان من واجبنا التعاون معهم. وكل ما يتطلب منا هذا الالتقاء هو ان نتجنب الخصومة مع الشيوعيين في هذه الظروف لكي لاتتناحر أو تتبدد جهود القوى المقاومة للاستعمار. ويجب أن يعرف بوضوح ان السياسة الشيوعية هي التي تلتقي بين حين وآخر مع سياستنا القومية لا العكس. ذلك لان سياستنا تسير دوما في خط واحد وتتبع مقياسا واحدا هو المقياس الانقلابي للمصلحة العربية، في حين ان استناد السياسة الشيوعية الى مقاييس خارجة عن نطاق الحاجات العربية يجعلها متقلبة. وهذا ما يطلب من الحزب توضيحه باستمرار منعا للالتباسات التي يتعمد خلقها الاستعمار وعملاؤه والرجعية الحاقدة على حركتنا، لكي يظهروا هذه الحركة بمظهر التابع المنقاد للشيوعية. وهذه الالتباسات يتعمدها أيضا الشيوعيون أنفسهم ليظهروا بمظهر الحزب المسيطر في التوجيه ولينالوا أيضا من هوية حزبنا القومية المستقلة.

وما دامت السياسة الشيوعية في التقائها مع سياستنا تنشد مصلحتها الخاصة فالتقاؤها هذا مفروض عليها من طبيعة مصلحتها ولا يتوقف على موافقة منا أو قبول بالتعاون معها لذلك لاتكون ثمة مبررات للتعاون مادام النفع حاصلا من مجرد هذا الالتقاء. وتقتضي الظروف أحيانا نوعا من التفاهم والاشتراك في بعض الامور الجزئية كما جرى حتى الآن في مظاهرات الطلاب وكما تم في انتخابات حمص الاخيرة للكرسي النيابي الشاغر حيث التقينا مع بعض الهيئات السياسية ومن جملتها الشيوعيون لدعم مرشح حيادي تقدمي ضد التكتل الاقطاعي العائلي الذي كان يسيطر على مدينة حمص ويعوق تقدم الحركة الشعبية فيها. ولكن الشيوعية لاتكتفي بهذا الالتقاء وهذا التعاون الجزئي المحدود، بل تنادي دوما بقيام جبهة وطنية لمرحلة طويلة حول شعارات عامة كمقاومة الاستعمار وأحلافه العسكرية.

فلننظر الآن الى الغاية التي تتوخاها الشيوعية من وراء تشكيل جبهة وطنية ثم الى الفارق الاساسي بين هذه الجبهة وبين الجبهات التي يمكن تشكيلها مع الاحزاب الوطنية والتي تعرضنا لذكرها وأعطينا كنموذج عنها جبهة ميثاق حمص. وأخيرا وعلى ضوء فهم مرامي الشيوعية، وعلى ضوء التفريق بين هذين النوعين من الجبهات نستطيع

ان نحدد موقفنا من دعوة الشيوعيين.

أما غاية الشيوعيين من تشكيل (الجبهة الوطنية) فهي:

١ ـ كما سبق وبينا ذلك في أكثر من مجال من هذه النشرة فرض توجيهها على أحزاب وهيئات أكثرها فاقد التفكير المنظم والجدي والتنظيم الحزبي المتين.

٢ ـ ان تكسب الشيوعية أكثر فأكثر اعتراف الاحزاب الوطنية بشرعية وجودها وأهميته الشيء الذي يزكيها لدى الرأي العام ويقويها.

٣ ـ ان تتصل بمختلف الاوساط والجماهير الشعبية عن طريق تعاونها مع هذه الاحزاب وان تتوسع بالتالي على حساب هذه الاحزاب.

٤ ـ ان تصل بنتيجة جمع مختلف الاحزاب والهيئات في جبهة واحدة، الى تشويش هذه الاحزاب والهيئات في تفكيرها وأسلوب عملها واظهارها كلها أمام الرأي العام في مستوى واحد لافرق بين العقائدي منها والمصلحي الانتهازي، وبمظهر الاحزاب غير الممثلة للشعب وغير القادرة على مواجهته وتوجيهه دون واسطة الشيوعية.

٥ ـ وترمي الشيوعية بصورة خاصة الى خلق هذا الالتباس حول حزبنا بالذات لطمس هويته الشعبية الانقلابية ووضعه في زمرة الانتهازيين والبورجوازيين.

ويقودنا هذا التحديد لمرامي الشيوعية الى التفريق بين الجبهات التي يمكن ان تدعو اليها الاحزاب المحافظة، في الظروف وضمن الشروط التي حددناها سابقا (والتي تضمن لحزبنا تفوقا في التوجيه وقوة في الانتشار والنضال دون ان تعرض هويته واتجاهه لأي التباس أو ضعف أو تضع عقيدته في صراع واصطدام مع عقائد أخرى، بل على العكس تضطر الاحزاب المتعاونة معه الى التخلي عن بعض مصالحها والسير في الاتجاه الشعبي التحرري) وبين الجبهة الوطنية التي يدعو اليها الشيوعيون والتي يؤدي اشتراكنا فيها الى أخطار والتباسات لابد من توضيحها..

ان حزبنا حزب انقلابي قومي يطرح حلا وحيدا ويرفض كل ماعداه. والشيوعية هي أيضا انقلابية لها حلها الذي لاتتنازل عنه. الا أنه حل أممي يرتبط بمبادىء وأهداف الشيوعية العالمية وهذا هو أول اصطدام وتعارض أساسي يحول دون اشتراكنا مع الشيوعية في سياسة طويلة الامد. ولئن قيل بأن هذا الاختلاف العقائدي لايؤثر في

تعاون سياسي مؤقت . . فنجيب بأن له نتائج عملية خطيرة، اذ لايمكن فصل العقيدة فصلا تاما عن العمل السياسي، فكل كسب في العمل السياسي ينعكس على العقيدة الموجهة له ويقويها. اذن فمجرد اشتراكنا في جبهة مع الشيوعيين هو توجيه ضمني من قبلنا للشعب كي يتشكك في عقيدتنا وفي كونها الحل الوحيد الملائم لحاجاته. ونحن لايضيرنا أن نتخوف من اتاحة الفرصة للشيوعية كي تكسب عطف الشعب وثقته على حسابنا ما دمنا نعرف أن الشيوعية تستند الى قوى خارجية تفوق قوتنا بكثير، وان القوة الوحيدة التي نستطيع الاعتماد عليها لنشر عقيدتنا وتحقيق ظفرها هي في بقاء هذه العقيدة واضحة مستقلة بعيدة عن الالتباس ومتجسدة في نضال حزبنا وتنظيمه. ونحن لم نخف من التنافس الايجابي بيننا وبين الشيوعية، أي أن نعمل نحن والشيوعيون كل من جهته على كسب ثقة الشعب على أساس العقيدة والنضال الواضحين. ولكن الجبهة الوطنية التي يريدها الشيوعيون ترمي الى خلق الالتباس حول عقيدتنا والى تجميد نضالنا أو تشويشه بقيود وأساليب ليست من طبيعته.

والواقع أن أكبر خطر يكمن في الجبهة هو احتمال تجميد نضالنا أو تضييق مجاله ثم تبديل أسلوب هذا النضال. فالحزب الشيوعي لايتضرر من تجميد نضاله أو تضييقه لأنه يبقى دوما مستفيدا من نفوذ الشيوعية العالمية وقوتها ورصيدها الثوري والنضالي لذلك يجيز لنفسه أن يساير أدنى المستويات النضالية وأن يساير سياسات الحكومات والاحزاب المحافظة وأن يسكت بالتالي عن كثير من الحاجات الشعبية دون أن يفقد صفته الانقلابية. أما حزبنا فليس له رصيد غير نضاله فاذا توقف عنه أو حد منه فانه يخسر شعبيا بنسبة هذا التوقف والحد. وأخيرا فالصفة الأممية للحزب الشيوعي واعتماده الرئيسي على قوته الخارجية يجيزان له ويدفعانه الى التساهل والتقلب في أسلوب العمل فلا يتورع عن الانتهازية والمسايرة والمغالطة دون أن يعرضه ذلك لخسارة جدية في نفوذه وشعبيته. أما الصفة القومية لحزبنا، واعتماده الكلي على قوة الشعب العربي وامكانياته الانقلابية، فيوجبان عليه أن ينتهج أسلوبا منسجما مع عقيدته الانقلابية وهذا فرق أساسي بيننا وبين الحزب الشيوعي. اذ أن حلنا الانقلابي القومي لايكون قابلا للتحقيق الا اذا حرك في داخل الامة العربية الوعي الانقلابي والارادة الانقلابية

والقوى الشعبية التي تجسد هذا الوعي وتنفذ هذه الارادة. وبتعبير آخر لايكون لانقلابنا أي أمل في النجاح ما لم نسلك طريقا عقائديا واضحا يتجاوب مع النفسية الانقلابية، ولو أدى ذلك الى اطالة الطريق وزيادة العقبات، لأن شعبنا هو وسيلة الانقلاب وغايته في آن واحد.

فما هو اذن موقفنا من دعوة الشيوعيين الى جبهتهم الوطنية؟..

يهمنا أن نؤكد حرص الحزب على النظرة العلمية الواقعية في رسم سياسته وخطوات نضاله، وعلى تجنب المذهبية الضيقة وما ينتج عنها من أفكار سابقة تباعد بين الحزب وبين تفهم الواقع الحي. وان كل ما أوردناه في صدد الجبهة لاينفي نفيا باتا قاطعا امكانية استجداد ظروف ووقوع أخطار في المستقبل تجعل تشكيل مثل هذه الجبهة مفيدا للقضية القومية رغم جميع المحاذير التي ذكرناها. ولكننا نجزم بعد ذكرنا لهذه المحاذير وتوضيحنا لخطورتها أن الظروف الحالية لاتبرر قيام هذه الجبهة واشتراكنا فيها بشكل من الاشكال. كما أننا نعتقد أن مبررات قيامها في المستقبل ستبقى ضعيفة ومستبعدة ما دام التقاء الشيوعية العارض مع بعض أهدافنا القومية العربية يؤدي الفائدة المرجوة من الجبهة دون أن يعرضنا لمحاذيرها وأضرارها.

ولابد هنا من الاشارة صراحة الى أن الرأي الذي يشجعه بعض الانصار وبعض الاعضاء من القناعة باكتمال الشروط والظروف اللازمة لدخولنا مع الشيوعية في جبهة وفي عمل مشترك انما مصدره تشوش في فهم قضايانا وشعور بالنقص أمام النشاط الشيوعي في العالم وأمام الغزو الفكري للشيوعية، والحزب مسئول الى حد كبير عن هذا النقص اذ عليه أن يوضح دائما نظرته وأفكاره، وأن يعلل بوضوح كل موقف من مواقفه. فالشيوعية لاتستفيد الا من العامية ونقص الوعي لفرض أفكارها وتبريراتها. ولابد أن نشير أيضا الى الرأي الخاطىء عند بعض الاعضاء والانصار الذي يعتبر أن مهمتنا الاولى عداء الشيوعية ومقاومتها ومبادرتها الخصومة، فهذا ناشىء أيضا عن رد فعل لشعور أكبر بالنقص وعن فهم خاطىء لمهمة حزبنا وللمرحلة التي نجتازها في نضالنا ضد الفئات الرجعية الحاكمة وضد الاستعمار المتسلط على بلاد العرب. اذ يتبين من كل ما تقدم بأن ايجابية حزبنا الاصيلة تمنعه وتقيه من أن يضيق ويفقر في الانحصار

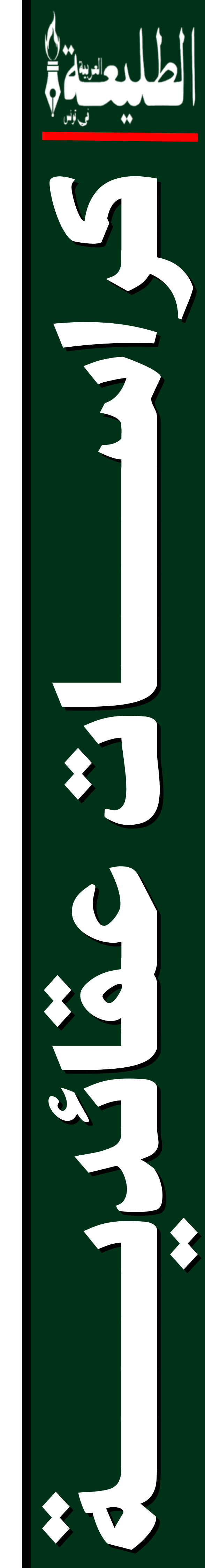
في مكافحة مذهب أو حركة مهما كان شأنها لأن الاصل في حزبنا أن يبدع فكرا ونضالا وأن يكون هذا الابداع ذاته المانع لنشوء وانتشار الافكار المنحرفة أو الخاطئة أو الضارة. واذا كان الحزب قد وجد ضرورة في بعض المناسبات في الماضي والتي قد تتكرر أيضا في المستقبل لمهاجمة الشيوعية والاصطدام بها فليس يعني ذلك أنه يرضى لنفسه ان يحمل مهمة مكافحة الشيوعية باستمرار وان تكون هذه أولى واجباته. لأن هذا الموقف في حقيقة الامور هو موقف الاستعمار وأجرائه. لذلك نحرص كل الحرص على أن نفرق بين موقف الحزب، وهو موقف سليم مستمد من رسالته ومن مصلحة الامة العربية وحاجاتها وبين الموقف المعادي والمكافح للشيوعية الذي هو موقف مصطنع لايعبر عن الواقع ولا عن الحاجات القومية الجوهرية وانما يستر عدا ضيق النظرة وسطحية الفكر، مصالح رجعية واستعمارية مفضوحة.

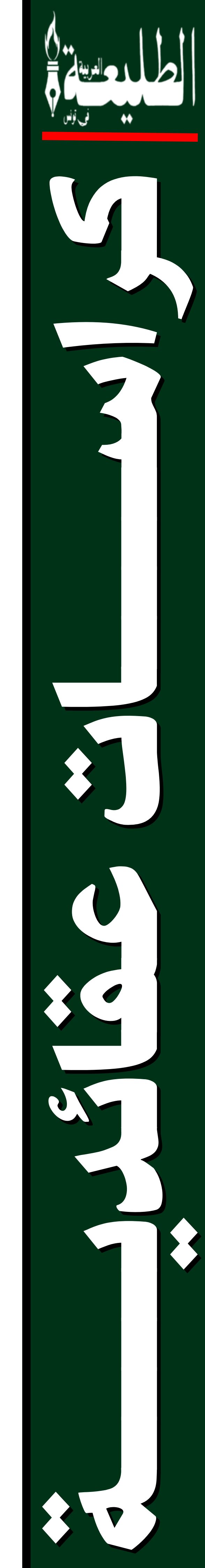
ولا بأس من أن نعود في النهاية الى ما قلناه في مطلع بحثنا عن وجود مستويين لموقفنا من الشيوعية الفكري والسياسي. **أما الفكري**.. فهو موقف اختلاف أساسي مع النظرة الشيوعية لايتساهل فيه الحزب قط وان كان لايتجاهل بعض النواحي الايجابية البالغة الاهمية في النظرة الشيوعية وأهم واجب على الحزب في هذا المستوى ليس هو الصراع والمكافحة والتهويش بقدر ماهو التوضيح الخصب الشامل بفكرة حزبنا وتعميم هذا التوضيح على أوسع نطاق ممكن اذ أن فيه وحده درءا لخطر التفكير الشيوعي وكل تفكير آخر خاطىء أو منحرف. **وأما الموقف السياسي**.. فيرسم على أساس الاخطار القائمة في الوطن العربي وتسلسلها في الاهمية ومادام ثمة استعمار فلن تكون الشيوعية عدو العرب الاول بل قد تكون في بعض الظروف وفي هذه المرحلة التحررية الكبيرة عنصرا يستفاد منه مع الروية والحذر.

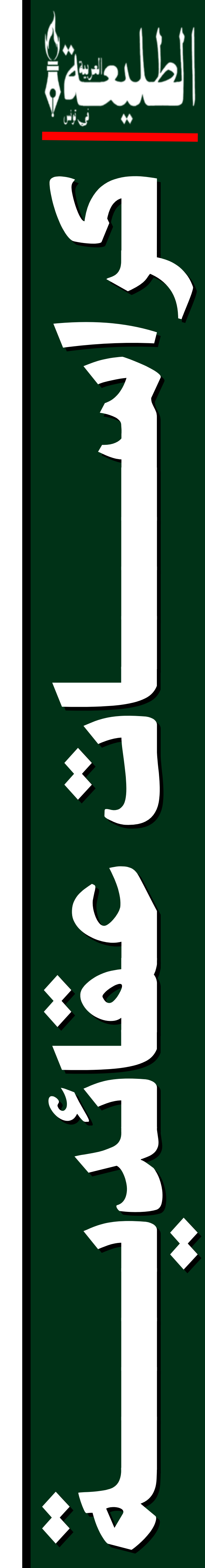
ولكن لابد من التساؤل.. هل يجوز أن نفصل فصلا تاما بين موقفنا الفكري وموقفنا السياسي؟.. والجواب هو أن الفصل التام غير جائز في منطق فكرتنا واننا ما دمنا نؤمن من جهة بأن العرب لايستطيعون أن يعتنقوا الفلسفة الشيوعية ونظرتها الى الانسان دون أن يتخلوا عن أثمن شيء في انسانيتهم، ومن جهة أخرى بأن هذه الفلسفة الشيوعية حتى بالنسبة الى غير العرب ليست الحل الايجابي الذي يمكن

للانسانية أن تطمئن اليه وتبنى عليه علاقاتها على أساس ثابت والى مدى بعيد بالرغم من خطورة الدور الذي مثلته الشيوعية في حياة الشعوب في هذا العصر، ومن القفزة التقدمية التاريخية التي كانت أهم عامل في تحقيقها، نقول أن واجبنا القومي والانساني وهما في حقيقة الامر واحد، يدعواننا ألا نسترسل في سياسة واقعية بحتة هي عين الانتهازية فنتصرف في موقفنا العملي من الشيوعية على أساس المصلحة القريبة فحسب، واضعين اتجاهنا الفكري (على الرف) دون استلهامه والاهتداء به في أعمالنا السياسية ودون أن نحاول باتزان وجهد تجسيد هذا الاتجاه في السياسة بشكل يوفق بين مبدئية فكرتنا وقابليتها للتحقيق ويُعد هذه الفكرة عن خطر الانتهازية والخيالية على السواء.. وبتعبير آخر يجب أن نعتبر أنفسنا مسئولين ليس عن المستقبل القريب فحسب بل وعن المستقبل البعيد أيضا وان لانسمح للشيوعية أن تصبح في يوم من الايام منافسة جدية لحركتنا عند جمهور شعبنا.

عام ١٩٥٦


الطليعة العربية في تونس
كراسات عقائدية


الطليعة العربية
في تونس
كراسات عقائدية


الطليعة العربية
في تونس
كراسات عقائدية